أجاثا كريستي

الجَرائم الأبْجَديّة

دار النجمة للنشر والتوزيع

الجَرائم الأبْجَديّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الجَرائم الأبْجَديّة

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

حدث هذا في شهر يونيو عام ١٩٣٥، عندما عدت إلى إنجلترا من مزرعتي في أميركا الجنوبية لأقضي في ربوع الوطن ستة أشهر أنجز خلالها بعض المهام الضرورية، بعد أن تركت زوجتي وحدها تدير شؤون المزرعة. ولست بحاجة لأن أذكر أن أول شيء قمت به بعد عودتي إلى إنجلترا هو مبادرتي إلى زيارة صديقي هيركيول بوارو. وقد وجدته يقيم في مسكن أنيق من أحدث المساكن في لندن، ولا عجب في هذا، إذ كان أحد المساكن التي تضمها عمارات نيوهافن في أحد الأحياء الراقية.

ودار الحديث طويلاً بيننا عن أيامنا السابقة في التعاون على كشف غموض الجرائم المعقدة وعن الشيب الذي خطّ شعر كل منا وعن أحسن أنواع صبغات الشعر التي تجعله يبدو طبيعياً لامعاً، وعن صلعة بوارو التي ستوفر عليه كمية كبيرة من الصبغة. وفي أثناء الحديث عن الجريمة والجرائم قال لي بوارو فجأة: هل تعرف يا هيستنغز أنني أعتبرك تميمة حظ؟

- أحقا، وكيف ذلك؟

ولم يرد بوارو على سؤالي مباشرة، بل استطرد يقول:

بمجرد أن علمت أنك في الطريق إلى هنا قلت لنفسي: لا بد وأن شيئاً سوف يحدث وأننا سنمضي معاً (كأيامنا السابقة) للإيقاع بالمجرم في شباك العدالة. وإذا صحت نبوءتي فلا ريب أن ما سوف يحدث سيكون شيئاً ضخماً ومثيراً، جديراً بمثل هذه النبوءة.

فهتفت قائلاً: أقسم يا بوارو أن من يسمعك يحسبك تتحدث عن حفلة ضخمة تنوي إقامتها في فندق ريتز.

- آه يا صديقي، إنني أؤمن بالحظ، أؤمن بالقدر، وأشعر أن الأقدار قد دفعت بك إلينا في هذه الأيام لتكون بجانبي ولتجنبني ارتكاب الأخطاء التي لا تغتفر.

- ماذا تعني بالأخطاء التي لا تغتفر يا بوارو؟

- هي إهمال ملاحظة الأشياء الواضحة العادية.

- حسناً، حسناً. وهل هذا الحدث الضخم على وشك الوقوع؟

فهزّ بوارو كتفيه وقطب جبينه مفكراً، ثم أومأ برأسه كأنما استقر على شيء، ثم نهض وتناول من خزانة محفوظاته المرتبة الأنيقة خطاباً مفتوحاً وتقدم به نحوي في تردد، ثم قال وهو يسلمه إليّ: اقرأ هذا الخطاب يا عزيزي وأخبرني برأيك فيه.

تناولت الرسالة من يده، ووجدت أنها مكتوبة على الآلة الكاتبة وعلى ورق رسائل سميك بعض الشيء، وكانت كما يلي:

السيد هيركيول بوراو،

أنت تظن نفسك عبقرياً في الكشف عن غموض الجرائم المعقدة التي يعجز عن كشفها رجال المباحث الإنجليز. حسناً أيها العبقري بوارو، دعنا نرى إلى أي حد تبلغ مهارتك، ولعلك ستجد أن هذه الجريمة أعلى من مستواك. انتظر ما سوف يحدث في بلدة أندوفر في اليوم الحادي والعشرين من هذا الشهر.

المخلص جداً: أ ب ج.

نظرت إلى المظروف الذي كان مكتوباً على الآلة الكاتبة أيضاً فوجدت أنه قد أُرسل من مكتب بريد عادي، وبعد برهة صمت قال بوارو: ما رأيك؟

فهززت كتفي وأعدت الرسالة إليه قائلاً: أعتقد أن كاتبها رجل مخبول.

- أهذا كل ما لديك من أقوال؟

- ألا ترى أنه مخبول تماماً؟

- إلى حد ما.

نغمة ما في صوته جعلتني أنظر إليه وأقول في دهشة: هل تنظر إلى هذا الموضوع باهتمام كبير يا بوارو؟

- إن الرجل المجنون يا صديقي ليس بالشيء البسيط الذي لا يثير الاهتمام، بل هو قد يكون شديد الخطر.

فقلت بسرعة: نعم، نعم، ولكني أردت أن أقول فقط إن مجنوناً قد أرسل إليك هذه الرسالة لإثارة ضجة جوفاء، أو

لعل كاتبها رجل أسرف في الشراب حتى فقد صوابه.

- كل هذا محتمل، ولكنني غير مطمئن في الوقت نفسه.

سألته قائلاً: هل عرضت هذه الرسالة على الشرطة؟

- أجل، عرضتها على المفتش جاب فقال كما قلتَ تماماً: "إنها دعابة ثقيلة من رجل سكير أو مجنون"، وأكد لي أن إدارة اسكتلانديارد تتلقى في اليوم الواحد عشرات من هذا النوع من الرسائل.

- إذن فلماذا تهتم بأمرها كل هذا الاهتمام؟

فأجاب بوارو ببطء قائلاً: إن في هذه الرسالة يا هيستنغز شيئاً يقلقني.

فقلت وأنا أراه يعيدها إلى مكانها: إذا كان الأمر كما تقول، أفلا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

- آه، أنت دائماً هكذا. ولكن ماذا في وسعي أن أفعل؟ إن رجال المباحث لا يهتمون بالأمر وليس على الرسالة بصمات أصابع، وليس هناك أي دليل يشير إلى كاتبها.

- ليس هناك في الواقع إلاّ شعورك الخاص.

- لا يا عزيزي هيستنغز. لا شأن لمشاعري بهذا الموضوع، إنما هي المعرفة، التجربة الطويلة هي التي تقول لي إن في هذه الرسالة شيئاً يثير القلق.

ثم لوح بيديه في شبه يأس لأن الكلمات لم تسعفه، وهزّ

رأسه وقال: لعلي أصنع من الحبة قبة، وأياً كان الأمر فليس أمامنا إلاّ الانتظار.

- أجل، والحادي والعشرون من هذا الشهر يوافق يوم الجمعة، فإذا وقع حادث سرقة بالقرب من أندوفر مثلاً...

فقاطعني قائلاً بسرعة: عندئذٍ أتنهد بارتياح.

- تتنهد بارتياح؟!

- نعم، لأن الذي يخيفني أن يكون الأمر أخطر جداً من مجرد حادث سرقة.

* * *

نهض السيد ألكسندر بونابرت جوست من مقعده وحملق بنظره القصير فيما حوله في غرفة نومه البالية، وكان ظهره متصلباً بسبب جلسته غير المريحة، ومن ثم راح يتمطى ويثب على قدمه بحيث لو رآه أحد في تلك اللحظة لحسبه رجلاً طويلاً جداً. ثم مضى إلى معطفه القديم المعلق وراء الباب وتناول من جيبه علبة سجائر رخيصة وبعض أعواد الثقاب وأشعل لنفسه سيجارة، ثم عاد إلى المائدة التي كان جالساً إليها فتناول دليلاً للسكك الحديدية وراح يبحث فيه عن شيء معين، ثم راح يتأمل قائمة بعدد كبير من الأسماء المكتوبة على الآلة الكاتبة، ومدّ يده ببطء فعلّم بالقلم على الاسم الأول.

كان ذلك في يوم الخميس، العشرين من شهر يونيو.

* * *

الفصل الثاني

رغم تأثري بهواجس صديقي بوارو إلاّ أنني كنت قد نسيت في الأيام التالية في خضم مشاغلي أمر تلك الرسالة، فلم أتذكرها -في الواقع- مرة أخرى إلاّ في اليوم الثاني والعشرين من الشهر عندما أقبل مفتش المباحث جاب إلى مسكن صديقي بوارو. ولما رآني صافحني بحرارة وشوق لأننا كنا صديقين قديمين وصاح مدهوشاً: آه، هذه مفاجأة يا كابتن هيستنغز! متى جئت من تلك البراري التي ذهبت إليها؟ إنني إذ أراك الآن أذكر تلك الأيام الطيبة التي كنت أراك فيها مع السيد بوارو دائماً. آه، أراك بخير وإن كان شعرك قد بدأ يخف بتأثير الزمن. حسناً، حسناً، هكذا الأمر معي أيضاً.

وامتعضت قليلاً من هذه الملاحظة ولكنني تذكرت أن جاب لم يكن لبقاً في أحاديثه مع أحد، ومن ثم تظاهرت بالابتسام بينما استطرد المفتش جاب في حديثه مع بوارو قائلاً: هكذا أنت دائماً يا سيد بوارو، كلما فكرت في اعتزال هذا الركض الطويل وراء المجرمين وجدت نفسك في خضم أحداث جديدة. هل سمعت يا كابتن هيستنغز عن الرسالة الغامضة التي تلقاها السيد بوارو؟

قال بوارو: لقد أطلعت هيستنغز عليها منذ بضعة أيام.

فهتفت قائلاً: أجل، أجل. لقد نسيت أمرها. ماذا كان التاريخ المذكور فيها؟

قال جاب: الحادي والعشرون، وهذا ما دفعني إلى الحضور، فقد كان أمس الحادي والعشرين من الشهر، وبدافع من الفضول فقط اتصلت أمس تليفونياً بمركز شرطة أندوفر فقيل لي إنه لم يحدث أكثر من مشاجرة بين أحد السكارى وزميل له وإصابة طفلة بحجر قذفه عليها طفل في مثل سنها، ومن ثم اعتقدت أن السيد بوارو لم يكن موفقاً في هواجسه هذه المرة.

فاعترف بوارو قائلاً: لقد استرحت الآن، حمداً لله.

- كنتَ شديد الجزع بسبب هذه الرسالة، أليس كذلك؟ لك الله! إننا نتلقى عشرات أمثالها كل يوم، ويبدو أن هناك طائفة من الناس تهوى كتابة هذا النوع من الرسائل لأسباب كثيرة مختلفة.

- الواقع أنني قد أوليت هذه الرسالة من الاهتمام أكثر مما تستحق.

- خير، لقد حضرت لزيارتك اليوم لأطمئنك من جهة، ولأنني كنت أقوم بالتحقيق في حادث سرقة جواهر في الشارع المجاور. طاب يومكما.

وبعد انصرافه قلت لبوارو: إنه لم يتغير كثيراً.

- أجل، ولكن الشعر الأبيض قد تكاثر في فوديه بشكل ملفت للنظر. حسناً، يبدو أنني كنت مخطئاً حقاً في هواجسي عن تلك الرسالة، ويلوح أن الإنسان كلما كبر في السن ازداد ارتياباً في كل شيء، كالكلب العجوز الأعمى الذي يحاول أن يثبت وجوده بالنباح الأجوف.

هنا ضحكت وقلت: اسمع يا عزيزي بوارو، إذا كنت تريد أن أستأنف العمل معك في الإيقاع بالمجرمين فيجب أن تكون الجريمة من النوع المثير الذي يقيم الرأي العام ويقعده.

فضحك بدوره وقال: إذا قُدّر لك أن تختار جريمة كما تختار طعام غدائك فكيف تريدها أن تكون؟ سرقة مثلاً أو تزييفاً؟

- أريد أن تكون جريمة تهديد رئيس وزارة مثلاً، أو خطراً يحدق بمليونير أمريكي يقيم في إنجلترا، أو خطف رئيس تحرير صحيفة كبرى... وأن يراق على جوانب الجريمة الدم.

فتنهد بوارو وقال: لا بد طبعاً أن يكون العنصر النسائي موجوداً فيها... فتاة جميلة.

- ذات شعر ذهبي!

- أجل، لأن الجمال كثيراً ما يجني على صاحبه ويثير حسد الناس له.

وقلت فجأة: ويحسن أن تعقب الجريمة الأولى جريمة ثانية، لأن هذا يزيد من اهتمام الناس بالأمر، فالجريمة الواحدة،

لا سيما حين تكتب في قصة مطولة، قد تبعث على ملل القارئ.

في تلك اللحظة صلصل جرس الهاتف، فتناول بوارو السماعة وقال: نعم، أنا بوارو، هيركيول بوارو.

وصمت برهة ينصت، ثم اربدّ وجهه وهو يقول هذه العبارات على التوالي: نعم، نعم... طبعاً، طبعاً سوف تحضر... أجل، ربما كان الأمر كما تقول... سآتي بها معي.

وأعاد السماعة إلى الحمالة وقال لي: إنه المفتش جاب يا هيستنغز.

- ماذا يريد؟

- قال إنه عقب وصوله إلى إدارة اسكتلانديارد وجد في انتظاره رسالة من أندوفر.

فهتفت قائلاً بانفعال: أندوفر؟!

- نعم، وجاء في الرسالة أن امرأة عجوزاً تدعى السيدة آسكر قد وُجدت مقتولة في دكانها الصغير الذي تبيع فيه التبغ والسجائر والحلوى.

وأعترف أن انفعالاتي قد هبطت في تلك اللحظة. لقد كنت أتوقع أن أسمع عن جريمة تهز الرأي العام، أما مقتل امرأة عجوز في بلدة نائية فهو حدث عادي يقع الكثير منه في كل يوم! واستطرد بوارو يقول: ويعتقد رجال الشرطة في أندوفر أن في مقدورهم وضع أيديهم على الفاعل.

ازدادت انفعالاتي هبوطاً بينما أردف بوارو يقول: يبدو أن

المرأة كانت على خلاف مع زوجها الذي أدمن الخمر وأصبح عاطلاً عن العمل ومنحط الأخلاق، وقد سمعه الكثيرون وهو يهدد زوجته بالقتل. وصمت بوارو برهة قبل أن يستأنف الحديث قائلاً: ومع هذا كله فإن رجال المباحث في إدارة اسكتلانديارد يريدون أن يعيدوا النظر في الرسالة الغامضة التي تلقيتها، وقد وعدتهم بأننا سنذهب إلى أندوفر.

أحسست بالانفعال المثير مرة أخرى وخامرني ذلك الشعور القديم، شعور كلب الصيد وهو يتأهب للانطلاق وراء الثعلب المراوغ. وكان بوارو لا يزال يتحدث، ولكنني لم أسمع شيئاً مما قال.

* * *

استقبلنا في أندوفر المفتش جلين، وكان رجلاً طويلاً أشقر البشرة لطيف الابتسامة. وأعتقد أن واجبي أولاً أن أسرد هنا الحقائق المجردة التي عرفت عن الجريمة والظروف المحيطة بها:

اكتشف أمر الجريمة الكونستابل دوفر في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أي في أول ساعة من صباح اليوم الثاني والعشرين من الشهر. وكان يقوم بدوريته الليلية التفتيشية عندما لاحظ أن باب دكان السيدة آسكر غير مغلق، فدخل وهو يظن في أول الأمر أنه لا يوجد به أحد، وفيما هو يسلط كشافه الكهربائي على ما وراء منصة البيع رأى جسم امرأة عجوز مكوماً. وحين حضر طبيب الصحة قال إن المرأة العجوز الذي ثبت أنها السيدة آسكر نفسها قد ماتت بضربة عنيفة أصابت

مؤخرة رأسها، ومن المحتمل أن تكون الضربة قد هوت عليها أثناء استدارتها لإحضار علبة سجائر من فوق أحد الرفوف. وقد حدد الطبيب الوفاة من سبع إلى تسع ساعات قبل اكتشاف الحادث.

قال المفتش في أثناء حديثه: لكننا استطعنا أن نحدد الوقت بأقل من هذا لأننا عثرنا على رجل اعترف أنه اشترى علبة تبغ من السيدة آسكر في الساعة الخامسة والنصف من مساء الحادي والعشرين، وقال آخر إنه ذهب لشراء علبة سجائر فوجد الدكان خالياً -كما ظن- في الساعة السادسة وخمس دقائق. وأنا لم أعثر بعد على أي شخص يشهد بأنه رأى زوجها السيد آسكر بالقرب من دكانها في ذلك الوقت المحدد، ولكن قيل لنا إنه كان في حانة «ثري كراونز» فاقد الوعي من الشراب في الساعة التاسعة من مساء أمس، وعندما يتم القبض عليه سوف نحجزه رهن التحقيق.

فقال بوارو: إنه شخصية فاسدة كما سمعت.

- نعم.

- هل كان يعيش مع زوجته؟

- لا، لقد انفصلا منذ بضعة أعوام. وآسكر ألماني الجنسية، وكان في يوم ما يشتغل جرسوناً ثم أدمن على الخمر وأصبح تدريجياً غير صالح لأي عمل، واشتغلت زوجته بالخدمة في البيوت حيناً، وكان آخر عمل لها أن اشتغلت طاهية ومدبرة بيت في منزل عانس عجوز تدعى الآنسة روز. كانت السيدة آسكر تعطي بعض المال لزوجها من أجرها

لتسكته عنها، لكنه كان يسكر ويذهب إليها ويثير معها النزاعات والفضائح، وهذا ما جعلها تقبل العمل مع الآنسة روز في بلدة جرانج التي تبعد عن أندوفر ثلاثة أميال، وهكذا لم يكن يستطيع أن يتردد عليها بكثرة. وحين ماتت الآنسة روز تركت في وصيتها للسيدة آسكر مبلغاً من المال استطاعت أن تنشئ به متجراً لبيع التبغ والحلوى والصحف. وكان دخلها من هذا المتجر يتيح لها حياة الكفاف، لكن زوجها ظل يثقل عليها بطلباته حتى اتفقت معه على إعطائه خمسة عشر شلناً كل أسبوع اتقاء لشره.

- هل لديهما أبناء؟

- لا، ولكن للمجني عليها ابنة أخت تشتغل مدبرة بيت في بلدة أوفرتون، وهي ناضجة كريمة الأخلاق.

- ذلك الرجل المدعو آسكر، أكان يهدد زوجته دائماً؟

- أجل، وكان إذا سكر يصبح وحشاً بذيء اللسان، وكثيراً ما هددها بتحطيم رأسها.

- وكم كان عمر المجني عليها؟

- كانت في نحو الستين، وكانت سيدة محترمة ومكافحة.

- إذن فأنت تعتقد يا سيدي المفتش بأن زوجها هو القاتل؟

تنحنح المفتش جلين قبل أن يقول: يجب أولاً أن نعرف كيف أمضى فترة المساء أمس، فإذا ثبت أنه كان بعيداً عن

مسرح الجريمة عند وقوعها فربما أفرجنا عنه، وإلاّ...

- ألم يسرق شيء؟

- لا، فإن النقود ظلت كما هي في الدرج، ولا يبدو أن هناك شيئاً مسروقاً.

- إذن فأنت تعتقد أن المدعو آسكر قد ذهب وهو مخمور إلى دكان زوجته، ثم تشاجر معها وضربها بشيء ثقيل على أم رأسها؟

- هذا ما يبدو لنا حتى الآن، ولكننا نريد أن نلقي نظرة على الرسالة الغامضة التي جاءتك.

وبعد أن قرأ المفتش الرسالة قطب جبينه وقال: لا يلوح أن آسكر هو كاتبها لأن يد الرجل أصبحت ترتعد بشدة بسبب إدمانه الخمر، وهذه الرسالة مكتوبة بيد ثابتة وبخط واضح، كما أن الورق والمداد من نوعين ممتازين بعيدين عن متناول رجل في مثل ظروف آسكر، ولهذا أرى أن الأمر مجرد مصادفة.

- هذا محتمل.

- لكنني لا أطمئن إلى هذا النوع من المصادفات.

وصمت برهة قبل أن يقطب جبينه مرة أخرى ويردف قائلاً: «أ.ب.ج»... من يكون هذا الشيطان؟ لسوف نحاول أن نعرف رأي ماري درارو ابنة أختها في هذا الموضوع، لولا هذه الرسالة لراهنت بكل قرش معي أن آسكر هو الجاني.

- ألديكم أية معلومات عن تاريخ المجني عليها؟

- هي امرأة من إقليم هامشاير، ذهبت للخدمة في المنازل منذ كانت فتاة في مدينة لندن، وهناك تقابلت مع آسكر وتزوجته. وفي عام ١٩٤٥ انفصلت عنه نهائياً بلا طلاق وعادت إلى هذه البلدة لتبقى في منأى عنه، ولكنه تبعها إلى هنا وراح يبتز مالها.

وهنا حضر أحد الكونستبلات، فقال له المفتش: حسناً يا بريجز؟

- لقد أحضرنا المدعو آسكر.

- أدخله فوراً، أين كان؟

- كان مختفياً في مركبة سكة حديد مهجورة.

- حسناً، أدخله فوراً.

كان فرانز آسكر الألماني الأصل والإنجليزي الجنسية نموذجاً بائساً من الجنس البشري، وكان يثرثر ويدمدم قائلاً وهو يحملق في وجوهنا بنظرات ملؤها الخوف والاحتجاج: ماذا تريدون مني؟ أنا لم أفعل شيئاً. إنكم تظلمونني، كل إنسان في هذه الدنيا يظلمني! أنا مسكين، دعوني وشأني.

وشرع في البكاء، وهنا قال له المفتش: تمالك نفسك يا آسكر، نحن لم نوجه إليك أي اتهام بعد ولم يجبرك أحد على أن تقول شيئاً رغماً عنك.

- لكنني لم أقتلها، لم أقتلها... دعوني وشأني.

- لقد هددتها كثيراً بالقتل يا آسكر، أليس كذلك؟

- لا، لا، كنت أمزح معها فقط.

- نوع لطيف من المزاح، أليس كذلك؟ حسناً، أين كنت بعد غروب يوم أمس يا آسكر؟

- لم أقترب من دكانها. لقد كنت أمس بعد الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل مع أصحاب محترمين، ذهبنا أولاً إلى حانة سفن ستارز ثم إلى حانة رد دوج، وكان معنا ديك ويلوز وكرودي العجوز وجورج وبلات وغيرهم... نعم، لم أقترب منها أمس.

وحين بدأ يصرخ وهو في حالة انهيار عصبي أمر المفتش بنقله إلى غرفة الحجز على ذمة التحقيق، فقال بوارو: ما رأيك في هؤلاء الشهود؟

- إنهم جميعاً من مدمني الخمر، ويتوقف الأمر الآن على أن يكون هناك شهود آخرون قد رأوه بالقرب من الدكان بعد ظهر أمس.

وبعد برهة صمت قال بوارو: هل أنت واثق من أن شيئاً لم يسرق من الدكان؟

فهزّ المفتش كتفيه وقال: من يدري؟ ربما سرقت علبة سجائر أو اثنتان، فإن هذا شيء لا يمكن التأكد منه. وبعد برهة صمت أردف قائلاً: لكن من غير المعقول أن يرتكب شخص جريمة قتل ليسرق بضع علب من السجائر.

قال بوارو: ألم يكن هناك في مكان الجريمة شيء؟ أعني

شيئاً غريباً في وضعه أو شكله أو مثيراً للانتباه؟

ففكر المفتش برهة ثم قال: كان هناك دليل السكك الحديدية.

- دليل السكك الحديدية؟!

- أجل، وكان مفتوحاً ومقلوباً على منضدة البيع وكأنما كان شخص يبحث فيه عن مواعيد القطارات المتحركة من محطة أندوفر.

- هل كانت السيدة آسكر تبيع هذا النوع من الكتب؟

هزّ المفتش رأسه وقال: كانت تبيع جداول سفر صغيرة لا يزيد ثمن الواحد منها على نصف قرش، أما هذا الدليل فهو من الحجم الكبير الذي لا يباع إلاّ في المكتبات الكبيرة.

وهنا ومضت عينا بوارو وقال بلهفة: أتقول دليل السكك الحديدية، أهو دليل برادشو أم دليل «أ ب ج»؟

هتف المفتش قائلاً: بحق السماء! إنه من هذا النوع الذي يقوم على الأحرف الهجائية.

* * *

الفصل الثالث

أعتقد أن اهتمامي بهذا الحادث قد تضاعف عند ذكر دليل برادشو السياحي القائم على تسجيل أسماء المحطات بالترتيب الأبجدي، وكان اهتمامي قبل ذلك لا يعدو اهتمام أي شخص غريب بمقتل امرأة عجوز فقيرة في بلدة نائية. إنها جريمة من النوع الذي تنشره الصحف في أصغر أركانها وبأصغر حروف طباعتها، وكنت أعتقد في قرارة نفسي أن السيدة آسكر قد ذهبت ضحية زوجها السكير وأنه لا شأن للرسالة الغامضة بهذه الجريمة وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون محض مصادفة. أما بعد أن سمعت بأمر هذا الدليل الأبجدي للسكك الحديدية فقد أحسست برعدة تسري في كياني، وأنا أؤمن بأن هذا لا يمكن أن يكون مصادفة.

لقد اتخذت الجريمة في رأيي وجهة أخرى خطيرة، فمَن هو ذلك الشخص الخفي الذي قتل السيدة آسكر وترك وراءه الدليل الأبجدي لمحطات السكك الحديدية؟

بعد أن غادرنا مركز الشرطة في أندوفر ذهبنا إلى المشرحة حيث رأينا المجني عليها جثة هامدة بشعرها الأشيب والإصابة القاتلة في رأسها. وأسرعنا بالخروج إلى مكتب الشاويش الذي

قال لنا مواسياً: إنها لم تعرف من الذي قتلها، فالدكتور كان يقول إن الوفاة قد حدثت في الحال، وأنا مسرور لهذا لأن هذه السيدة كانت طيبة ومسكينة، وأحمد الله أنها لم تتعذب.

قال بوارو: يبدو أنها كانت جميلة في شبابها.

فنظرت إليه مدهوشاً وقلت: هل لهذا علاقة بالحادث؟

- حسناً، سوف نرى.

ثم التقينا بالدكتور كار الذي قال: إن رجال المباحث لم يعثروا على أداة القتل بعد، ولكن من الواضح أنها أداة من نوع عادي: هراوة، ثقل من أي نوع، عصا محشوة بالحديد أو كيس رملي... كل هذا قد يكون من الأدوات التي تستعمل لارتكاب الجريمة.

- هل توجيه هذه الضربة كان يستلزم قوة خاصة.

نظر الطبيب إليه في ارتياب وقال: أتعني هل يستطيع رجل في السبعين من عمره مرتعش اليدين مثل آسكر أن يوجه ضربة كهذه؟ نعم، هذا ممكن.

- إذن فقد يكون القاتل امرأة؟

فنظر الطبيب إليه بدهشة وقال: امرأة؟ هذا الاحتمال لم يخطر ببالي ولكنه احتمال ممكن الوقوع، أما من الناحية النفسية فيمكنني القول إنها ليست جريمة نسائية.

فأومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: بكل تأكيد، بكل تأكيد. هذا أمر بعيد الاحتمال، ولكن على الإنسان أن يشمل بنظرته

جميع الاحتمالات. كيف كان وضع الجثة؟

فذكر الطبيب أنه يرجّح أن المجني عليها كانت قد استدارت بظهرها للقاتل لكي تأتي إليه بشيء فأهوى على مؤخرة رأسها، فتكومت على نفسها وراء منضدة البيع، ومن ثم بدا الدكان لعابر السبيل وكأنه خالٍ تماماً.

* * *

قال لي بوارو بعد انصرافنا: أترى يا عزيزي هيستنغز؟ هذه نقطة جديدة في جانب براءة آسكر، فلو أنه هو الذي ذهب إلى زوجته يسبها ويهددها لوقفت أمامه تواجهه، ولكنها كانت عند الوفاة مستديرة بظهرها إلى القاتل الذي جاء ولا شك في هيئة رجل يريد شراء شيء.

ثم أردف قائلاً وهو ينظر في ساعة يده: أعتقد أن أوفرتون ليست بعيدة من هنا، ما رأيك في أن نسرع إليها الآن ونقابل ابنة أخت المجني عليها؟

- ألا يحسن أن نمضي أولاً إلى مسرح الجريمة؟

- أفضّل أن أفعل هذا فيما بعد لأسباب خاصة.

بعد لحظات قليلة كنا نندفع بالسيارة في طريق لندن متجهين نحو بلدة أوفرتون، وكان العنوان الذي أعطاه لنا المفتش ينطبق على بيت كبير يبعد نحو ميل على الجانب اللندني من القرية. واستجابت لرنين جرسنا فتاة شابة في ملابس سوداء، جميلة الوجه متورمة العينين من فرط البكاء.

قال لها بوارو برفق: آه! أعتقد أنك الآنسة ماري دراور؟

- أجل يا سيدي، أنا ماري.

- هل أستطيع أن أتحدث معك بضع دقائق بعد إذن سيدتك؟ إن الموضوع يتعلق بمقتل خالتك السيدة آسكر.

- سيدتي في الخارج يا سيدي، وهي لن تمانع في أن تتفضل بالدخول.

ثم فتحت باباً لغرفة استقبال صغيرة. وبعد أن جلسنا بجوار النافذة رمق بوارو الفتاة بإمعان ثم قال: لقد سمعت طبعاً بما حدث لخالتك؟

فأومأت الفتاة برأسها وقالت والدموع تنساب من عينيها: علمت هذا الصباح يا سيدي عندما جاء أحد رجال الشرطة وأخبرني بالحادث. آه، إن الأمر فظيع، يا لخالتي المسكينة! عاشت بائسة طيلة حياتها ثم تكون هذه هي النهاية؟

- ألم يعرض عليك رجل الشرطة الذهاب إلى أندوفر؟

- قال إنني يجب أن أحضر جلسة التحقيق التي ستعقد يوم الاثنين القادم، أما الآن فكيف أذهب وأين أقيم هناك؟ لن أطيق الإقامة في غرفة خالتي التي تقع وراء الدكان وزميلتي في العمل هنا غائبة عند أهلها، وأعتقد أنه لا يجوز أن أترك سيدتي بمفردها في مثل هذه الظروف.

فقال بوارو برفق: أكنت تحبين خالتك؟

- جداً يا سيدي. لقد كانت عطوفة عليّ، هكذا كانت

دائماً منذ وفاة أمي. وقد بدأت أعمل بالخدمة في البيوت منذ كنت في السادسة عشرة من عمري، ولكنني كنت حريصة على قضاء يوم عطلتي الأسبوعية لديها. كان ذلك الألماني اللعين سبباً في شقاء حياتها، إنه لم يتركها تنعم يوماً بالراحة والهدوء.

كانت الفتاة تتحدث بحماس، فقال لها بوارو: ألم تفكر خالتك يوماً في طلب الطلاق منه؟

- لا يا سيدي، إن خالتي لم تكن من النوع الذي يبرر الطلاق لأي سبب.

- هل سمعته يهددها يا ماري؟

- أوه، كثيراً. وما أفظع ما كان يقوله لها! كان يقول إنه سيذبحها يوماً وسيحرقها يوماً وسيدق عنقها، كان لا يكف عن السباب بالإنجليزية والألمانية، ومع ذلك كانت خالتي تقول إنه كان في شبابه رجلاً لطيفاً جميلاً مهذباً.

- إذن فأنت لم تدهشي كثيراً حين سمعت بمصرع خالتك واتهام رجال الشرطة إياه بأنه هو القاتل؟

- على العكس يا سيدي. لقد دهشت جداً لأنه لم يخطر ببالي قط أن مثل هذا الرجل العجوز السكير المهدم يستطيع أن يقتل نفساً بشرية، بل أكثر من هذا كنت أراه يتراجع عنها كالكلب المذعور عندما تستدير إليه وتبدأ في معاملته بالمثل. أجل، لقد كان يخشاها!

- ومع ذلك كانت تعطيه مالاً؟

- طبعاً يا سيدي، ألم يكن زوجها؟

- نعم، نعم. ثم أردف بوارو بعد لحظة صمت: لنفرض أنه ليس قاتلها.

فحملقت في وجهه بدهشة وتمتمت: ليس قاتلها؟!

- أجل، لنفرض أن الذي قتلها شخص آخر، فهل لديك أية فكرة من يمكن أن يكون؟

- لا يا سيدي، مطلقاً. إن هذا غير محتمل، فمن هذا الذي يسعى إلى قتل امرأة عجوز مسالمة مثل خالتي؟

- ألم تسمعيها تذكر اسم أي شخص غاضب منها أو ساخط عليها؟

- أبداً، أبداً يا سيدي.

- ألم تستلم رسائل بتوقيعات أشخاص مجهولين؟

- لا أظن يا سيدي.

- أليس لخالتك أقارب غيرك؟

- لا أظن يا سيدي، لقد كانت واحدة من عشر بنات وأبناء، ولكن لم يعش منهم سوى ثلاثة غيرها، هي وخالي توم الذي قتل في الحرب وخالي هاري الذي رحل إلى أمريكا الجنوبية ولم نعد نسمع عنه شيئاً. أما أمي فقد ماتت وأنا طفلة، وهكذا لم يبق لها من الأقارب غيري.

- هل كانت خالتك تدخر مالاً؟

- كانت تدخر في بنك التوفير مبلغاً بسيطاً يكفي لتغطية نفقات جنازتها، أما فيما عدا ذلك فقد كانت تجاهد حتى تقيم أودها، فضلاً عن المبالغ التي كان ذلك الشيطان يبتزها منها.

أومأ بوارو برأسه ثم نهض وهو يقول: إذا احتجنا إليك في أي وقت يا ماري فهل نكتب إليك في هذا العنوان؟

- الواقع أنني لن أمكث هنا طويلاً. لقد آثرت العمل في هذه البلدة لأكون قريبة من خالتي. ثم طفرت الدموع من عينيها وهي تردف قائلة: أما وقد ماتت فأعتقد أن مكان العمل الملائم لفتاة مثلي هو مدينة لندن.

- أرجو عندما ترحلين إلى لندن أن ترسلي إليّ بعنوانك الجديد، وهذه هي بطاقتي.

فقالت بعد أن نظرت في البطاقة: إذن فأنت لست من رجال الشرطة يا سيدي؟

- إنني أعمل لحسابي الخاص.

فوقفت ونظرت إليه برهة، ثم قالت بصوت خافت: هل ثمة شيء خاص في هذه الجريمة يا سيدي؟

- أجل يا ابنتي، وسوف تعرفين كل شيء في حينه، ونرجو أن تبذلي جهدك في مساعدتنا إذا احتجنا إليك.

- هذا ما أرجوه يا سيدي.

وبعد لحظات كنا في طريق العودة إلى أندوفر.

* * *

كان مسرح الجريمة في شارع جانبي يتفرع من الشارع العام بالبلدة، وكان دكان السيدة آسكر يقع في منتصف هذا الشارع الجانبي في الجهة اليمنى. وفيما نحن ندخل هذا الشارع رأيت بوارو ينظر في ساعته، وعندئذٍ أدركت لماذا أرجأ زيارة مسرح الجريمة حتى هذا الوقت. لقد أراد أن يصل إليه في نفس الفترة المماثلة للفترة التي وقع فيها الحادث، أي في الساعة الخامسة والنصف مساء.

كان هناك بعض الدكاكين المتناثرة بين بيوت الطبقة الدنيا في ذلك الشارع الجانبي، وكان المعتاد في ذلك الوقت من اليوم أن يرى فيه بعض السكان وهم عائدون من أعمالهم إلى بيوتهم أو بعض الأطفال وهم يلعبون. أما عندما ذهبنا نحن فقد كان المنظر مختلف جداً، كان هناك جمع كبير من سكان البلدة الذين دفعهم الفضول إلى مسرح الجريمة راحوا يقفون من بعيد جماعات ويتبادلون الأحاديث والتعليقات عن الحادث.

وحين وصلنا إلى الدكان وجدناه صغيراً حقير المظهر مغلقاً، وقد وقف أمامه أحد رجال الشرطة. ووقف بوارو برهة ينظر إلى اللافتة الحقيرة التي تحمل اسم «أ. آسكر» ثم قال لي فجأة: هلم ندخل هذا الدكان يا هيستنغز.

وشققنا طريقنا بين المجتمعين، وقدم بوارو بطاقته الخاصة لرجل الشرطة الذي أومأ برأسه وفتح باب الدكان، وسمح لنا بالدخول بين دهشة المتفرجين البالغة. كان الظلام في الداخل كثيفاً فأدار الشرطي مفتاح النور، وعلى هذا الضوء

الكهربائي أخذت أفحص ما حولي. كان دكاناً صغيراً حقيراً أيضاً من الداخل، على منضدة البيع بعض الصحف والمجلات الرخيصة التي يعلوها الغبار ووراء المنصة بضعة أرفف عليها علب السجائر والحلوى والتبغ وبعض الدمى الخزفية الرخيصة، وعلى مشجب في نهاية الدكان كان معطف من الصوف القديم ومطرف وسترة نسائية، وكانت هذه كلها بقايا ملابس المسكينة أليس آسكر.

قال بوارو وهو يمسك بيدي: هلم إلى الخارج يا هيستنغز، فلن نجد هنا ما يلقي أي ضوء على الحادث.

ولما عدنا إلى الشارع وقف بوارو متردداً برهة، ثم عبرنا الطريق إلى الجانب الآخر حيث كان ثمة دكان فاكهي وخضري في الجهة المقابلة تماماً لدكان السيدة آسكر، وكان الفاكهي يعرض معظم سلعه على منصات خارج الدكان. كان بوارو قد طلب مني بصوت خافت ونحن نعبر الطريق إلى ذلك الدكان أن أشتري أية كمية من الفاكهة أثناء حديثنا مع البائعة، وراح يتحدث مع البائعة البدينة وهو يشتري منها كمية من الخس بينما طلبت أنا شراء رطل من الفراولة. كان هو يقول معلقاً على الحادث: كان الحادث في مواجهتك تماماً، أليس كذلك؟ أعني مقتل السيدة آسكر، لا شك أنه قد أثار ضجة كبيرة في بلدة صغيرة كهذه؟

ويبدو أن البائعة البدينة كانت قد تعبت من كثرة الحديث عن هذا الموضوع، فقد قالت في ضجر واضح: لا أدري لماذا يتجمع كل هؤلاء الناس، إلى ماذا ينظرون؟

- لا شك أن الشارع كان هادئاً أمس، ولعلك لاحظت القاتل وهو يدخل. إنه رجل طويل أشقر روسي السمت، أو هكذا يقال.

- ما هذا! أهو روسي؟

- علمت أن رجال الشرطة قد قبضوا على رجل روسي بتهمة قتل السيدة آسكر.

- آه، حسناً جداً. إذن فهو أجنبي غريب عن البلاد.

- كنت أظن أنكِ قد لمحته وهو يدخل دكانها؟

- الواقع أنني لا ألاحظ المارة كثيراً لأنني أكون في مثل هذا الوقت مشغولة بالبيع، ولكن من المؤكد أنني لم أرَ رجلاً طويلاً أشقر البشرة يمر بالشارع أمس.

وهنا تدخلت أنا في الموضوع وقلت: معذرة أيها السيد، ولكنني سمعت شخصياً أن رجال الشرطة قد ألقوا القبض على رجل قصير خمري اللون له لحية صغيرة. واشترك في الحديث عندئذٍ صاحب الدكان زوج البائعة وصبي في نحو العاشرة، وقد قال الثلاثة إنهم رأوا أربعة رجال قصار القامة سمر الوجوه ولكن ليس بينهم أي شخص له لحية صغيرة، وقال الصبي إنه رأى رجلاً طويلاً أشقر وله لحية.

وبعد انصرافنا عن الدكان قلت لبوارو في ضيق: ماذا كنت تهدف من هذا اللغو الفارغ؟

- كنت أريد أن أعرف إلى أي حد يمكن أن يلاحظ

هؤلاء الناس مرور رجل غريب عن البلدة بهذا الشارع.

- أما كان يمكنك أن تسألهم مباشرة؟

- لا، إن السؤال المباشر يجعلهم يتحفظون، أما هذه الطريقة البسيطة في تبادل الحديث فهي التي تخرجهم عن تحفظهم وتجعلهم يتجاوبون معك ويجيبون على أسئلتك دون أن يشعروا بالخوف أو الحرج. ثم أردف قائلاً وهو ينظر إلى كيس الفاكهة في يدي: عندما تشتري نوعاً من الفاكهة في مثل هذه الظروف يا هيستنغز يجب أن تختار نوعاً من الفاكهة الجافة. انظر الآن، إن الفراولة قد أوشكت أن تبلل ملابسك.

لاحظت في استياء أن تلك هي الحقيقة، ومن ثم انتهزت أول فرصة وأعطيتها لغلام في الطريق. وأضاف بوارو إليها الخس الذي اشتراه، ثم عدنا إلى الجانب الذي يقع فيه دكان السيدة آسكر حيث رأينا أن المنزل والدكان الواقعين على يمينه خاليان ومكتوب عليهما أنهما للإيجار، أما على الجانب الآخر فكان ثمة منزل صغير حقير تنسدل على نوافذه الأمامية ستائر غبراء من الموسلين. وطرق بوارو باب هذا المنزل الأخير فلم يلبث أن فتحه صبي صغير قذر السمت، فسأله بوارو عن والدته، فأسرع إليها وبعث بها إلينا بينما لاذ هو في ركن من الردهة يتأملنا في شك وقلق.

أقبلت علينا سيدة حادة الملامح، متجهمة الوجه وقالت فوراً: لا فائدة من إضاعة وقتكم في...

ولكن بوارو قاطعها قائلاً وهو يرفع قبعته ويحييها باحترام: طاب مساؤك يا سيدتي. أنا محرر في صحيفة الإيفننج فليشر،

وأرجو أن تقبلي هذه الجنيهات الخمسة مقابل إعطائنا بعض المعلومات الخاصة لكتابة مقال عن جارتك السيدة آسكر.

فانبسطت أسارير المرأة أمام الجنيهات الخمسة وقالت: تفضلا بالدخول، تفضلا.

دخلنا غرفة صغيرة ضيقة مكتظة بالأثاث القديم، واستطعنا أن نجلس على نحو ما أمام السيدة التي قالت معتذرة: أنا آسفة على لهجتي الحادة التي تحدثت بها في أول الأمر، والواقع أن ربة البيت منا لا تكاد تفرغ من فتح الباب بين الحين والآخر لهذا البائع المتجول أو ذاك، باعة المكانس الكهربائية والمطهرات والصابون الكيميائي والجوارب والروائح... وكلهم يتحدثون برقة ولباقة، يحاولون أن يكتبوا الاسم ويقولون: لكي تكوني عميلة دائمة يا سيدة فاولر، وهكذا.

انتهز بوارو فرصة التعرف باسمها فقال بلباقة: حسناً يا سيدة فاولر، أرجو أن تحققي رجاءنا في كتابة مقال عن جارتك المسكينة.

فرمقت السيدة الجنيهات الخمسة في يد بوارو وقالت: أرجو هذا، ولكنني لا أعرف كيف تكتب المقالات.

فأسرع بوارو وأكد لها أنها لن تكتب بنفسها شيئاً وإنما يكفي أن تدلي إليه بما تعرفه عن حياة جارتها الخاصة، ثم يتولى هو صياغة المقال. تشجعت السيدة فاولر واندفعت تحدثنا بكل ما تعرفه عن المجني علينا. كانت تعيش منطوية على نفسها ولا تميل إلى مصادقة أحد، ولا شك أنه كان لها العذر بسبب المتاعب التي عاشت فيها والتي كان زوجها

السبب الوحيد في إثارتها. ولكن السيدة آسكر لم تكن تخشاه حقاً، بل إنها كانت تستطيع -إذا شاءت- أن تملأ قلبه بالفزع منها. إلاّ أن هذا لم يكن يمنع السيدة فاولر من تحذيرها من أنه قد يقتلها ذات يوم. قالت: "كنت أقول لها: كوني دائماً على حذر منه"، وقد حدث ما كنت أخشاه وماتت مقتولة دون أن أشعر أو أسمع أي شيء.

سألها بوارو إن كانت القتيلة قد تسلمت أي خطابات تهديد أو خطابات بلا توقيع، فقالت بعد تفكير قليل إنها لا تعلم شيئاً عن هذا ولا تعتقد أن السيدة آسكر من النساء اللاتي يهتم أحد بإرسال خطابات بلا توقيع إليهن. ثم سألها بوارو قائلاً: هل سبق أن رأيت عندها دليل برادشو للسكك الحديدية؟

قالت في حيرة: أنا لم أرَ مثل هذا الدليل في حياتي.

- إنه يرتب أسماء المحطات بالحروف الهجائية.

- لا يا سيدي. لم أره من قبل، لا عند السيدة آسكر ولا عند غيرها.

- هل رأى أحد ذلك المدعو آسكر وهو يدخل دكانها في تلك الساعة التي وقعت فيها الجريمة؟

- لا شك أنه كان حريصاً طبعاً حتى لا يراه أحد.

وألقى بوارو عليها مزيداً من الأسئلة، ولكن المرأة ظلت تعيد وتكرر ما قالته عن سوء أخلاق السيد آسكر وعن قسوة معاملته لزوجته وعن تحذيراتها الدائمة للزوجة. وحين أعطاها

بوارو الجنيهات الخمسة وانصرفنا قلت له: أتعتقد أن هذه المعلومات المتكررة التافهة تساوي هذا المبلغ؟

فهزّ بوارو كتفيه وقال: نحن الآن كالذي يعيش في ظلام دائم، ولكن من يدري؟ فربما نجد في النهاية بصيصاً من الضوء يرشدنا إلى غايتنا، ولعل بعض المعلومات التي تبدو لنا الآن تافهة تكون ذات قيمة كبيرة في المستقبل.

لم أفهم في تلك اللحظة ماذا يعني بالتحديد، ولكنني لم أطلب منه التفسير أو التوضيح لأننا التقينا عندئذٍ بالمفتش جلين.

* * *

الفصل الرابع

كان المفتش جلين يبدو مكتئب السمات، وكان -كما فهمت- قد أمضى طيلة فترة ما بعد الظهر يحاول أن يكتب قائمة بجميع الأشخاص الذين شوهدوا يدخلون دكان السيدة آسكر بعد ظهر اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو. وسأله بوارو قائلاً: ألم يرَ واحد منهم أحداً من الداخلين؟

- أوه، بل رأوا الكثيرين. رأوا ثلاثة رجال طوال لهم نظرات مختلسة مضطربة، وأربعة رجال قصار لهم شوارب كثة، واثنين بلحيتين مهوشتين، وثلاثة رجال بدينين وكلهم أجانب... ولست أدري لماذا لم يروا عصابة رهيبة يضع رجالها الأقنعة السوداء على وجوههم شاهرين مسدساتهم!

فابتسم بوارو في إشفاق وقال: ألم يرَ أحدٌ ذلك المدعو آسكر وهو يدخل الدكان في ذلك الوقت؟

- لا، لم يره أحد، وهذا في صالحه طبعاً. وأعترف الآن بأنني قد طلبت من حكمدار المنطقة أن يطلب الاستعانة برجال اسكتلانديارد لأن هذه الجريمة ليست محلية في نظري.

- أتفق معك في هذا الرأي.

- إنني متشائم جداً يا سيد بوارو وأحس بأن هذه الجريمة ستكون حلقة أولى في سلسلة الجرائم المتوالية، ولست أدري لماذا!

* * *

كان علينا أن نقوم بزيارة اثنين من سكان بلدة أندوفر: أحدهما السيد جيمس بارتريدج الذي كان آخر من شاهد السيدة آسكر وهي لا تزال على قيد الحياة لأنه اشترى منها علبة سجائر في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الحادث. كان السيد بارتريدج رجلاً ضئيل الحجم يعمل كاتباً في بنك ويضع على عينيه نظارة قراءة ويبدو دقيقاً في كل حركاته وتصرفاته، وكان يقيم في بيت نظيف مرتب. قال وهو يحملق في بطاقة بوارو: آه، السيد بوارو من طرف المفتش جلين؟ أنا تحت أمرك يا سيد بوارو.

- فهمت يا سيد بارتريدج أنك آخر من رأى السيدة آسكر وهي على قيد الحياة؟

فنظر السيد بارتريدج إلى بوارو كما ينظر إلى شيك غير مستوف للشروط ثم قال: هذه مسألة لا يمكن الجزم بها يا سيد بوارو، ومن أين لي أو لغيري العلم بأن أحداً لم يدخل لشراء شيء بعدي؟

- لو دخل أحد بعدك لتقدم وأدلى بشهادته.

- بعض الناس ينقصهم الشعور بأداء الواجب يا سيد بوارو.

- صدقت، وأعتقد أنك ذهبت إلى مركز الشرطة للإدلاء بمعلوماتك متطوعاً.

- نعم، طبعاً، فبمجرد أن سمعت عن الحادث الأليم بادرت إلى مركز الشرطة وأدليت بشهادتي آملاً أن ألقي بعض الضوء على غموض الحادث.

- هذه روح طيبة فعلاً، هل يمكن أن تكرر على سمعي هذه الشهادة؟

- طبعاً، طبعاً. لقد كنت عائداً إلى بيتي، وفي تمام الساعة الخامسة والنصف...

- معذرة يا سيد بارتريدج، كيف أمكنك تحديد هذا الوقت بالدقة؟

- كانت ساعة الكنيسة تدق النصف بعد الخامسة، فنظرت في ساعتي حيث وجدتها متأخرة، وكان هذا قبل أن أدخل دكان السيدة آسكر بلحظة.

- هل كان من عادتك أن تشتري منها بعض حاجياتك؟

- أحياناً، فإن دكانها يقع في طريقي إلى البيت، وقد اعتدت أن أشتري منها علبة سجائر بين يوم وآخر.

- هل تعرف شيئاً عن السيدة آسكر، عن ماضيها أو تاريخ حياتها؟

- لا شيء تقريباً، ولم أكن أتبادل معها أي حديث إلاّ عن الطقس أحياناً.

- أكنت تعرف أن لها زوجاً سكيراً اعتاد أن يبتز منها المال بالقوة؟

- لا، لم أكن أعرف عنها شيئاً من هذا القبيل.

- أنت تعرفها بالنظر، فهل رأيت في مظهرها ما يدل على أنها كانت في حالة غير طبيعية في ذلك الحين؟

- لا، بل كانت كعهدي بها تماماً.

ونهض بوارو قائلاً: شكراً يا سيد بارتريدج على هذه الإجابات. هل أستطيع أن أجد لديك دليل الحروف الهجائية للسكك الحديدية، أريد أن أعرف مواعيد القطارات المسافرة إلى لندن من أندوفر.

- الدليل على الرف خلفك.

وعلى ذلك الرف وجد بوارو مجموعة من المجلات بينها دليل برادشو والكتاب السنوي لأعمال بورصة الأوراق المالية ودليل كيلي التجاري ودليل الشخصيات المعروفة. تناول بوارو دليل القطارات وتظاهر بالبحث عن مواعيد بعض القطارات فيه ثم أعاده إلى مكانه.

كان الشخص الثاني الذي أردنا مقابلته هو السيد ألبرت ريدل، وكان رجلاً يختلف جداً عن السيد بارتريدج. كان يعمل في محل لطلاء المعادن، وكان متجهم الوجه متحفظاً في الحديث، كبير الجسم عريض الوجه، يبدو الارتياب الطبيعي في عينيه. كان حين استقبلنا في ردهة بيته قد فرغ من تناول عشائه وراح يشرب كوباً من الشاي. وقال لنا وهو يحملق في

وجه كل منا بسخط شديد: لقد قلت كل ما أعرف ولم يعد لديّ المزيد من الأقوال... وهنا أقبلت زوجته من المطبخ وقالت: يحسن أن تذكر للسيد بوارو ما لديك من أقوال يا برت.

فصاح بها ثائراً: اسكتي أنت، ألا يكفي استجواب رجال الشرطة الملاعين لي؟

فقال بوارو برفق: أعتقد أنك قد ذهبت إلى مركز الشرطة بمحض إرادتك؟

- ولماذا أفعل؟ ما شأني أنا حتى لو انطبقت السماء على الأرض؟

- إن المسألة خطيرة، جريمة قتل، وأعتقد أن من واجب كل مواطن أن يذكر كل ما لديه من معلومات تساعد على الوصول إلى الحقيقة.

- إن لديّ أعمالي الخاصة، وهي التي منعتني من الذهاب إلى مركز الشرطة بإرادتي.

- لقد قيل لرجال الشرطة إنك شوهدت تدخل دكان السيدة آسكر حوالي الساعة السادسة، ولهذا جاؤوا لسؤالك في هذا الشأن، فهل اقتنعوا بأقوالك؟

- ولماذا لا يقتنعون؟

ولما هزّ بوارو كتفيه قال الرجل في تحد وعنف: ماذا تريد أن تقول يا هذا؟ كل الناس يعلمون من هو القاتل، إنه زوجها اللعين بطبيعة الحال.

- ولكن أحداً لم يشاهده هناك في فترة وقوع الجريمة، بينما شوهدت أنت.

- أتريد أن تثبت التهمة عليّ أيها الأجنبي؟ أتظن أنني قتلتها لأسرق علبة سجائر أو لفافة تبغ أو مجلة؟ أتريد أن تقول عني كما يقول غيرك، إنني أحب منظر الدم؟

ونهض الرجل مهتاجاً مهدداً متوعداً، ولكن زوجته قالت في توسل: برت، لا تقل شيئاً كهذا. وقال بوارو بثبات: هدئ نفسك يا سيدي، أريد فقط أن أعرف شيئاً عن ظروف ذهابك إلى الدكان، ولست أجد أي مبرر يمنعك من أن تذكر لي هذا.

فتهالك السيد ريدل جالساً وقال: ومن قال إنني ممتنع؟

- هل كانت الساعة السادسة عندما دخلت الدكان؟

- نعم، كانت قبل السادسة بلحظات، ولكن هذا لا يهم. كنت أريد شراء علبة سجائر فدفعت الباب ودخلت.

- هل كان الباب مغلقاً؟

- نعم، وكنت أظنه مغلقاً بالمفتاح ولكنني وجدت من الممكن فتحه، ففتحت مصراعه ودخلت ولكنني لم أرَ أحداً، فأخذت أدق بقبضة يدي على منصة البيع، ولما لم يسمعني أحد انصرفت. هذا كل ما حدث.

- كأنك لم ترَ الجثة المكومة وراء المنصة؟

- لا، فرؤيتها كانت تقتضي أن أنحني فوق المنصة لأنظر إلى ما وراءها، فلماذا أفعل هذا؟

- هل كان على المنصة دليل للسكك الحديدية؟

- أجل، وكان موضوعاً بالمقلوب، ومن ثم خطر لي أن المرأة العجوز قد سافرت فجأة ونسيت أن تغلق الدكان بالمفتاح.

- هل لمست الدليل أو حركته من مكانه؟

- لا طبعاً، ولماذا أفعل؟

- ألم ترَ أحداً ينصرف من الدكان وأنت متجه إليه؟

- لا، وقد ذكرت لك كل ما أعرفه عن هذا الموضوع.

ونهض بوارو وقال وهو يهم بالانصراف: شكراً يا سيد ريدل.

وفي الطريق، نظر بوارو إلى ساعته وقال: إذا أسرعنا فربما استطعنا أن نلحق قطار الساعة السابعة إلى لندن. هلم إليه.

في مقصورة الدرجة الأولى بالقطار قلت لبوارو: ما رأيك؟

- إن القاتل رجل متوسط الطول أحمر الشعر أحول العينين يعرج بقدمه اليمنى قليلاً ويوجد تحت لوحة كتفه أثر جرح قديم.

فهتف قائلاً: ما هذا يا بوارو؟!

فضحك قائلاً: ماذا تريد مني أن أقول وأنا أراك تنظر إليّ متوسلاً وكأنما ترجوني أن أخرج لك القاتل على طريقة شرلوك

هولمز؟ الحقيقة أنني لا أعرف شيئاً عن القاتل، لا عن شكله ولا عن محل إقامته، ولا أدري كيف يمكن القبض عليه.

- لو أنه ترك وراءه أثراً فقط؟

- لقد ترك وراءه دليل السكك الحديدية.

- أتظن أنه تركه وراءه خطأ؟

- لا طبعاً، والدليل على ذلك بصمات الأصابع.

- ولكنه لم يترك على الدليل أية بصمات.

- وهذا ما يجعلني أؤمن بأنه قد تركه عامداً، فنحن في شهر يونيو والحر شديد، وليس من المعقول أن يسير رجل وفي يديه قفازات، وما دام لم يكن مرتدياً قفازات فلا بد أن يكون قد ترك عليه بصمات أصابعه وهو يحمله. ولكننا لم نجد بصمات أصابع، فمعنى هذا أنه حرص على مسح ما على الدليل من بصمات أصابع، ولو كان الذي ترك الدليل رجلاً بريئاً لما اهتم بمسح بصمات الأصابع من فوقه. ولكن لماذا تركه القاتل وراءه؟ هذا هو السؤال.

- ألا يمكن أن نستدل بشيء بسيط عن هذا الطريق؟

- لا أظن يا هيستنغز. إن المجرم شخص يعتز بذكائه الخارق كما يبدو، ومثل هذا الشخص لا يترك وراءه سلسلة من الأدلة والآثار التي تدل عليه.

- إذن فدليل القطارات لا قيمة له في هذا الأمر؟

فهزّ بوارو كتفيه وقال: إن له قيمة من الوجهة الاستنتاجية

فقط، فالقاتل شخص ينوي أن يبقى مجهولاً باسمه ولكنه مع هذا أراد أن يلقي بعض الضوء على شخصيته من حيث لم يشأ، فنحن من جهة لا نعرف عنه شيئاً، ومن جهة أخرى نعرف عنه الكثير. أنا مثلاً أرى أن شخصيته بدأت تتكون في غموض أمامي. إنه رجل يكتب بخط واضح جيد، ويستعمل في رسائله ورقاً من النوع الجيد، وهو في أشد الحاجة للتعبير عن شخصيته. إنني أراه في طفولته طفلاً مهملاً لا يهتم بأمره أحد، وأراه في شبابه ينمو وهو يحس بأنه أقل شأناً من غيره وبأنه مظلوم من الناس ومن المجتمع. ومن ثم أرى ذلك الحافز الداخلي، الحافز الذي يدفعه للتعبير عن كيانه وشخصيته لتحويل الانتباه إلى شخصه، وقد ظل هذا الحافز يقوى ويشتد ولكن الظروف كانت تحطمه وتكبته بقسوة وعنف وتضيف إليه المزيد من الشعور بالإهانة في نفسه، وهكذا انتهى به الأمر إلى هذا الطريق الرهيب للتعبير عن ذاته.

قلت معترضاً: هذا كله مجرد استنتاج، إنه لا يفيد في الكشف عن غموض الجريمة.

- أنت تفضل دلائل أخرى: طرف عود ثقاب، رماد سيجارة، آثار حذاء بمسامير، خيط حريري، وما إلى هذه الأدلة التي لم يعد المجرمون الحديثون يتركونها وراءهم. ولكن يمكننا أن نسأل أنفسنا: لماذا ترك وراءه دليل الحروف الهجائية للسكك الحديدية؟ ولماذا قتل السيدة آسكر بالذات؟ ولماذا اتخذ بلدة أندوفر مسرحاً لجريمته؟ ثم الرسالة المجهولة التوقيع، لماذا أرسلها إليّ أنا بالذات؟ كل هذه أسئلة يمكن أن تلقي بعض الضوء على هذه الغوامض كلها.

وبعد برهة صمت قلت: وماذا تنوي أن تفعل بعد هذا؟

- لا شيء.

- كيف هذا؟

- ماذا تريدني أن أفعل؟ أنا لست ساحراً ولا قارئ غيب، وكل ما يمكن أن أقوم به في هذا السبيل سيقوم به رجال المباحث على أكمل وجه. ثم أردف بعد برهة صمت أخرى: الشيء الوحيد أمامي هو الانتظار... انتظار الرسالة الثانية.

فحملقت فيه مندهشاً وقلت: أتتوقع أن تأتي إليك رسالة أخرى؟!

- بكل تأكيد يا عزيزي. إن نجاح المجرم في الإفلات من نتائج الجريمة الأولى سيغريه بارتكاب جريمة ثانية.

وهززت كتفي في شك.

* * *

مضت الأيام وحفظ التحقيق في قضية مصرع السيدة آسكر، وأفرج عن زوجها، ولم يشأ رجال البوليس بناء على توصية بوارو أن يشيروا أثناء التحقيق إلى الدليل الهجائي للسكك الحديدية. وبصورة إجمالية لم يهتم بالجريمة أحد خارج بلدة أندوفر، بل إن أهالي البلدة أنفسهم لم يلبثوا أن بدؤوا ينسون الحادث بعد أيام معدودة. وأعترف أنني شخصياً كنت على وشك نسيان الحادث أيضاً لولا أنني تذكرته بقوة في صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر يوليو. كنت قبل ذلك

اليوم لم أرَ بوارو مدة يومين أو ثلاثة حيث انشغلت ببعض المهام في مدينة يوركشاير، وحين عدت يوم الإثنين بعد الظهر رأيت بوارو يصعد إلى المسكن بعد الساعة السادسة وهو يحمل خطاباً وجده في صندوق بريده، وما كاد يفتحه حتى هتف قائلاً: لقد وصلت!

- ماذا تعني؟

- الرسالة الثانية.

ورحت أحملق إليه في ذهول، بينما دفع بالرسالة إليّ وطلب مني أن أقرأها.

عزيزي السيد بوارو،

حسناً، ما رأيك؟ لقد انتصرت عليك وجعلتك تقف حائراً عاجزاً أمام جريمة أندوفر. لكن المباراة بيني وبينك لا تزال في أولها. والآن دعني ألفت نظرك إلى مصيف بكسهيل في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر.

يا لها من مباراة رائعة مسلية يا سيد بوارو!

المخلص: أ ب ج

وهتفت قائلاً بعد أن فرغت من قراءة الرسالة: يا إلهي! هل ينوي هذا المجنون أن يرتكب جريمة أخرى حقاً؟

- طبعاً يا هيستنغز، ألم أقل لك هذا؟

- ولكن الأمر رهيب.

- إننا نواجه مجنوناً دموي المزاج.

- بكل تأكيد.

وأعدت إليه الرسالة وأنا أرتعد، ولكن هدوءه أثارني. ولم ألبث أن تبينت أن الانفعالات الشديدة لن تجدي في أمر خطير كهذا.

* * *

في صباح اليوم التالي عقد كبار رجال المباحث مؤتمراً خطيراً شهده المفتش جاب ومساعده المفتش كروم وحكمدار منطقة سكس ونائبه كارتر والمفتش جلين من أندوفر وعالم التحاليل المشهور الدكتور ثومبسون، وقد شهدت مع بوارو هذا المؤتمر الخطير. لقد استعرض الجميع الموضوع من كل جوانبه، وحرص الدكتور ثومبسون (وكان كهلاً لطيفاً) على استخدام العبارات المبسطة في تحليلاته العلمية، أما نائب حكمدار اسكتلانديارد فقد قال: لم يعد لدينا شك في أن الرسالتين مكتوبتان بخط واحد وأن كاتبهما شخص واحد، ويمكننا أن نقول عن يقين إن كاتب هاتين الرسالتين هو مرتكب جريمة أندوفر. ولدينا الآن إنذار صريح بارتكاب جريمة ثانية في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر وبمصيف بكسهيل. أي أن الجريمة سوف تحدث بعد غد إذا لم نضع أيدينا على المجرم، فما هي الخطوات الواجب اتخاذها؟

والتفت حكمدار سكس إلى نائبه مستفهماً وقال: ما رأيك يا كارتر؟

هزّ نائب الحكمدار رأسه في حيرة وقال: إن الأمر عسير

جداً يا سيدي، فلا توجد أية إشارة تدل على أنه سوف يكون هناك ضحية أخرى، بل لا نعرف هل ستكون امرأة هذه المرة أو رجلاً. وإذا تحدثت بصراحة فأنا لا أدري ماذا يمكن أن يفعله الإنسان في هذه الظروف.

غمغم بوارو قائلاً: إنني أقترح، أعني، أظن...

والتفت الجميع إليه بينما استطرد هو قائلاً: أظن أن الضحية التالية سوف يبدأ اسمها بالحرف «ب».

قال حكمدار اسكتلانديارد في شك: هذا رأي لا بأس به. وقال الدكتور ثومبسون مفكراً: عقدة أ.ب؟

- أظن أن الأمر مجرد احتمال لا أكثر، وقد خطر لي هذا الاحتمال عندما قرأت اسم آسكر على لافتة دكانها. وحين ذكر المجرم المجهول في رسالته التالية أن مسرح جريمته الثانية سيكون مصيف بكسهيل خطر لي أن اسم الضحية سيبدأ بالحرف «ب» حسب ترتيب الحروف الأبجدية أو الهجائية في أسماء البلاد والضحايا.

فقال الدكتور ثومبسون: هذا محتمل جداً. ومن ناحية أخرى قد يكون اسم آسكر وبلدة أندوفر مجرد مصادفة، وفي هذه الحالة ربما تكون الضحية التالية امرأة عجوزاً لها دكان صغير في بكسهيل. لا تنسوا أننا نتعامل مع رجل مجنون لا نعرف بعد دوافعه على ارتكاب هذه الجرائم.

فسأله المفتش جاب قائلاً: وهل للرجل المجنون دوافع تبرر ارتكابه جرائم قتل؟

- طبعاً، وهي معقولة وواجبة التنفيذ، فقد يعتقد واحد منهم أنه مبعوث العناية الإلهية لقتل جميع القساوسة أو الأطباء أو النساء العجائز اللاتي يمتلكن متاجر صغيرة لبيع السجائر والحلوى... ولهذا لا يجوز أن نجري وراء نظرية الحروف الهجائية على أنها هي النظرية الصحيحة تماماً، فربما كان اسم بكسهيل بعد أندوفر مجرد مصادفة.

وهنا قال حكمدار سكس لنائبه كارتر: على الأقل يحسن أن نكون على حذر في هذه الناحية وأن نتخذ بعض الاحتياطات الممكنة وأن ندون الأسماء التي تبدأ بحرف الباء في ذلك المصيف، لا سيما أسماء النسوة العجائز اللاتي يبعن السجائر والحلوى في متاجر صغيرة. ولا أظن أنه في مقدورنا أن نفعل أكثر من هذا، إلاّ أن نراقب الأجانب في تلك البلدة بصفة خاصة.

غمغم كارتر في ضيق قائلاً: لقد بدأت العطلة المدرسية السنوية، ولا شك أن مثل هذا المصيف سيكون الآن مزدحماً بالطلبة وأهليهم.

فقال رئيسه في حدة: علينا أن نفعل في ما وسعنا أن نفعله.

قال المفتش جلين بدوره: سوف أضع رقابة حازمة على كل شخص كانت له علاقة بجريمة أندوفر، وأهم هؤلاء جميعاً هم آسكر والرجلان بارتريدج وريدل، فإذا ظهر أن أحدهم سيغادر أندوفر فسوف يكون أحد رجالنا وراءه.

وانفض المؤتمر بعد تقديم بعض المقترحات الأخرى

التي لا قيمة لها.

* * *

قلت لبوارو ونحن نسير على شاطئ النهر: بوارو، لا بد أن نمنع وقوع هذه الجريمة الثانية بأي شكل.

فرفع بوارو إليّ وجهاً مرهقاً وقال: إن رجلاً مجنوناً واحداً قد يمكن أن يثير الفزع في قلب مدينة مليئة بالعقلاء، أتذكر سلسلة جرائم جاك الجزار؟

- كانت مفزعة.

- الجنون يا هيستنغز شيء رهيب، إنني خائف جداً.

* * *

الفصل الخامس

ما زلت أذكر ساعة يقظتي من النوم صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر يوليو، وأعتقد أن الساعة كانت النصف بعد الخامسة. كان بوارو واقفاً بجانب فراشي يهزني برفق من كتفي، وما أن فتحت عينيّ وألقيت نظرة على وجهه حتى تنبهت من نومي تماماً. قلت وأنا أنتصب جالساً: ماذا حدث؟

قال ببساطة تخفي وراءها انفعالاً مكبوتاً: لقد وقع ما كنت أخشاه.

فهتفت قائلاً: ماذا؟ ولكننا في اليوم الخامس والعشرين.

- لقد وقعت الجريمة في الواحدة بعد منتصف الليل، أي في الساعة الأولى من اليوم الخامس والعشرين، هذا اليوم.

فوثبت من فراشي وغسلت وجهي بسرعة، وراح بوارو يحدثني بما سمعه في الهاتف وأنا أرتدي ملابسي، قال: لقد وُجدت جثة فتاة شابة على شاطئ مصيف بكسهيل، وعرفت أنها لفتاة تدعى بيتي برنارد، واسمها الكامل إليزابيث برنارد. وكانت تعمل مضيفة في أحد المقاهي وتعيش مع والديها في بيت صغير من طابق واحد مبني حديثاً. ويقول الطبيب الذي

فحص الجثة إن الوفاة حدثت فيما بين الحادية عشرة والنصف والواحدة صباحاً.

فسألته بسرعة وأنا أضع الصابون على ذقني: وهل أيقن رجال الشرطة أن هذه هي الجريمة التي كنا نتوقع حدوثها؟

- لقد عثروا تحت جثة الفتاة على دليل برادشو للسكة الحديدية.

فقلت وأنا أرتعد: هذا أمر رهيب!

- تمالك نفسك يا هيستنغز، فأنا لا أريد مأساة أخرى في مسكني هذا.

مسحت قطرات الدماء التي انبعثت من جرح في وجهي أثناء الحلاقة وقلت: ماذا تنوي أن تفعل؟

- سوف تأتي سيارة الشرطة بعد لحظات لتقلنا إلى مسرح الجريمة.

وفي خلال ربع ساعة كانت سيارة الشرطة السريعة تنطلق بنا خارج مدينة لندن. كان معنا المفتش كروم الذي شهد المؤتمر في اليوم الأسبق والذي عهد إليه بالتحقيق في هذا الحادث. كان كروم يختلف كثيراً عن المفتش جاب، فهو أصغر سناً ويميل إلى الصمت وإلى الترفع عمن حوله، وكان أكثر علماً وثقافة ويبدو لي شديد الإعجاب بنفسه، لا سيما بعد أن نال وسام الكفاءة الممتازة عقب قضائه على عصابة خطف الأطفال قبل أن يتسع نطاق أعمالها. الواضح أنه كان الشخص المناسب لتولي هذه المهمة الخطرة، ولكن عيبه

الوحيد أنه كان يدرك هذه الحقيقة فيزهو في أعماق نفسه ويعامل الذين حوله كأنهم أطفال صغار.

قال لبوارو بلهجة الرئيس المترفع الذي يتحدث إلى إنسان بسيط: لقد تحدثت طويلاً مع الدكتور ثومبسون، وهو كما نعرف شديد الاهتمام بهذا النوع من «الجرائم المسلسلة» أو الجرائم التي ترتكب على حلقات، ويعتبرها نموذجاً على الاضطراب العقلي الذي يتميز بطابع معين. وقد أفاض الدكتور في شرح نظريته طويلاً وضرب المثل عليها بآخر قضية من القضايا التي كانت في عهدتي، ولعلك قرأت عنها. إنها قضية مابل هومر الطالبة في مدرسة مازويل هيل.

ثم راح يفيض في الحديث عن هذه الجريمة الغامضة التي استطاع أن يكشف غموضها ويقبض على مرتكبها في أسرع وقت، وبعد أن سادت بيننا فترة من الصمت قال كروم عندما تجاوزنا محطة نيو كروسبي: إذا أردت أن تستفسر عن شيء يتعلق بهذه الجريمة فيمكنك أن تسألني.

- هل وصلتكم بعض التفاصيل عن شكل الفتاة وعن بعض ظروفها الاجتماعية؟

- كانت في الثالثة والعشرين من عمرها وتعمل في مقهى جنجركات.

- ترى هل كانت جميلة؟

فرفع كروم حاجبيه ثم قال في اقتضاب: هذا ما لم نعرفه بعد.

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي بوارو وهو يقول: أترى أن هذا لا أهمية له؟ حسناً، إنني أرى أن لجمال الفتاة في مثل هذه الظروف الأهمية الأولى.

ويبدو أن المفتش كروم قرر أن يضع للمحادثة نهاية إذ قال ببرود: آه، نعم.

وظل الصمت مخيماً حتى بلغنا بلدة سيفن أوك، وعندها قال بوارو: هل عرفت كيف خنقت الفتاة وبأي شيء؟

فأجاب كروم بإيجاز: خنقت بحزامها، وهو حزام ثوبها الذي كانت ترتديه، حزام مفتول متين معقد.

فاتسعت عينا بوارو وقال: آه، لقد استطعنا أخيراً أن نعرف شيئاً محدداً.

- إنني لا أرى في هذا ما يدل على شيء معين.

- أعتقد أنه يدل على عقلية المجرم الوحشية المضطربة.

وساد الصمت بقية الرحلة. وفي بكسهيل استقبلنا نائب حكمدار سكس والمفتش كارتر، وكان معه شاب وسيم باسم هو المفتش كيسلي الذي عهد إليه بمعاونة المفتش كروم في مهمته.

قال المفتش كارتر: أعتقد أنك تفضل القيام بتحرياتك الخاصة يا كروم، ولهذا سأكتفي بذكر الخطوط العامة للجريمة لكي أترك لك حرية البحث والتحقيق على طريقتك الخاصة.

فقال كروم: شكراً يا سيدي.

- لقد أبلغنا النبأ إلى والديها، وكانت بطبيعة الحال صدمة قاسية. وقد تركتهما حتى يستردا بعض هدوئهما، ويمكنك أن تبدأ بسؤالهما الآن إذا شئت.

سأل بوارو: هل هناك أفراد آخرون يهمهم الأمر في محيط أسرتها؟

- لها أخت تعمل على الآلة الكاتبة في لندن، وهناك شاب يقال إنه خطيبها وإنها كانت على موعد للخروج معه أمس.

وسأل كروم قائلاً: هل استطعتم أن تجدوا شيئاً جديداً من دليل السكك الحديدية الذي وجد تحت الجثة؟

فأشار نائب الحكمدار إلى منضدة في غرفته وقال: إنه على هذه المنضدة، ولم نجد عليه أية آثار لبصمات أصابع. وهو دليل جديد، وقد وجدناه مفتوحاً على الصفحة التي فيها اسم بكسهيل، ويبدو أن المجرم اشتراه من مكان بعيد من هنا لأننا سألنا جميع أصحاب المكتبات الموجودة في المنطقة.

- ومن الذي اكتشف الجثة يا سيدي؟

- ضابط متقاعد برتبة كولونيل، وقد اعتاد الخروج مبكراً في السادسة صباح كل يوم مصطحباً كلبه لاستنشاق هواء الصبح النقي، وبينما هو يسير على الشاطئ في اتجاه بلاج كورين انطلق كلبه فجأة وراح يتشمم شيئاً على الشاطئ، فلما تبعه صاحبه شاهد الجثة، فأسرع لإبلاغ الشرطة بالأمر دون أن يلمس شيئاً.

- وهل تحدد وقت الوفاة بمنتصف الليلة الماضية؟

- نعم، فيما بين الحادية عشرة والنصف والواحدة صباحاً، وهذا مؤكد. ويبدو أن مجرمنا المجنون مصرٌّ على أن يكون عند وعده، وهكذا ارتكب جريمته في اللحظات الأولى من اليوم الخامس والعشرين كما وعد.

فأومأ كروم برأسه وقال: نعم، هذه عقلية مختلة قطعاً. أليس ثمة تفاصيل أخرى؟ ألم يرَ أحد شيئاً قد يفيد التحقيق؟

- لا شيء حتى الآن، ولكننا ما زلنا في ساعة مبكرة، وأكبر ظني أن كل واحد شاهد شخصاً يسير مع فتاة في ثوب أبيض يوم أمس سوف يأتي ويدلي إلينا بأقواله، وأعتقد أن عدد الفتيات ذوات الملابس البيضاء اللاتي سرن أمس مع رجال أو شبان لا يقل عن خمسمئة، وعلى هذا سيكون عدد الشهود ضخماً.

فقال كروم: حسناً يا سيدي، يحسن أن أبدأ عملي الآن. هناك بيت الفتاة والمقهى الذي كانت تعمل فيه، وسأذهب إلى الاثنين بادئاً بالمقهى.

تساءل نائب الحكمدار قائلاً وهو يلتفت إلى بوارو، فقال هذا وهو ينحني برأسه للمفتش كروم: يسرني أن أذهب معه.

ولاح لي أن كروم لم يعجبه هذا، أما المفتش الشاب كيسلي الذي لم يكن قد رأى بوارو من قبل فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

قال كروم: وماذا عن الحزام الذي كان أداة القتل؟ إن

السيد بوارو يعتقد أن له دلالة كبيرة ولا شك أنه يريد أن يراه.

فقال بوارو بسرعة: لا، لا، يبدو أنك قد أخطأت فهم ما أقصد.

قال المفتش كارتر: لن تستطيع أن تجد في هذا الحزام ما يفيد التحقيق، إنه ليس حزاماً من الجلد الذي قد تكون عليه بصمات أصابع وإنما هو حزام من الحرير المفتول الذي يصلح تماماً لمثل هذا الغرض.

وارتعدت مرة أخرى بينما قال كروم: حسناً، هلم إلى العمل.

* * *

بدأنا أولاً بزيارة مقهى جنجركات الذي يقع في مواجهة البحر، وكان من المقاهي النموذجية الصغيرة التي تكثر في المصايف، حيث يشرب فيها الرواد القهوة والشاي والمرطبات أو يتناولون بعض الوجبات الخفيفة. وكان بعض الرواد المبكرين قد جلسوا إلى موائدهم يشربون قهوة الصباح، ومن ثم أسرعت مديرته وأدخلتنا إلى غرفة خاصة لكي لا تلفت إلينا الأنظار.

قال لها المفتش كروم متسائلاً: الآنسة ماريون؟

فقالت مديرة المقهى بصوت ناعم يشوبه الحزن: نعم، هذا هو اسمي. إن ما حدث أمر رهيب مزعج، وأخشى أن يكون له أثر سيئ على العمل هنا.

كانت الآنسة ماريون سيدة في نحو الأربعين من عمرها، نحيفة جداً وفي حالة اضطراب عصبي تدل عليه حركات أصابعها التي كانت تنقبض وتنبسط بلا توقف.

قال لها المفتش كيسلي مشجعاً: بالعكس يا آنسة ماريون، إن ما حدث سيدفع الكثيرين إلى الحضور إلى هذا المقهى بالذات بدافع الفضول.

- آه، هذا محتمل، ولكنه شيء منفّر مزعج. إنه يدل على قسوة الطبيعة البشرية.

ولكن وميض السرور بالرواج المنتظر كان واضحاً في عينيها. وسألها المفتش كروم قائلاً: ماذا يمكن أن تحدثيني به عن المجني عليها يا آنسة ماريون؟

- لا شيء، لا شيء إطلاقاً.

- منذ متى وهي تعمل هنا؟

- منذ الصيف الماضي.

- هل كانت راضية عن عملها؟

- نعم، كانت مضيفة بارعة وسريعة في تقديم الطلبات.

سألها بوارو قائلاً: هل كانت جميلة؟

رمقت الآنسة ماريون بوارو بنظرة وكأن لسان حالها يقول: "يا لوقاحتكم أيها الأجانب!"، ثم قالت: كانت وسيمة لطيفة الشكل.

سألها كروم: متى انصرفت من عملها في الليلة الماضية؟

- في الساعة الثامنة مساء. إننا نغلق المقهى في مثل هذا الوقت لأننا لا نقدم وجبة العشاء لأحد.

- ألم تذكر لك كيف كانت تنوي أن تقضي سهرتها؟

فقالت الآنسة ماريون بلهجة تأكيد: طبعاً لا، إن علاقتنا الخاصة لم تصل إلى هذا الحد.

- ألم يحضر أحد للخروج معها أو للسؤال عنها؟

- لا.

- هل كانت في حالتها الطبيعية؟ أعني ألم يبدُ عليها اضطراب أو انفعالات نفسية معينة؟

فقالت الآنسة ماريون في حذر: لا أعرف على وجه التحديد.

- كم عدد المضيفات العاملات في هذا المقهى؟

- اثنتان بصفة دائمة، واثنتان بصفة احتياطية ابتداء من اليوم العشرين من يوليو حتى آخر أغسطس.

- هل كانت بيتي برنارد مضيفة احتياطية؟

- لا، بل كانت مضيفة أصلية.

- وماذا عن الأخرى؟

- أتعني الآنسة هيلي؟ إنها فتاة لطيفة.

- هل كانت هي وبيتي برنارد صديقتين؟

- هذا ما لا أجزم به.

- هل يمكننا إذن أن نتحدث مع الآنسة هيلي؟

- الآن؟

- إذا أمكن.

فنهضت الآنسة ماريون قائلة: سأبعث بها إليكم، وأرجو ألا تحجزوها طويلاً لأن رواد المقهى يكثرون في هذه الساعة.

وبعد لحظات أقبلت فتاة ممتلئة الجسم سوداء الشعر متوهجة الوجه بالانفعالات، لاهثة الأنفاس وهي تقول: لقد أرسلتني الآنسة ماريون.

- أنت الآنسة هيلي؟

- نعم أنا.

- أكنت تعرفين بيتي برنارد؟

- أوه، طبعاً. أليس ما حدث لها رهيباً؟ إنني لا أكاد أصدق ما حدث، لا أكاد أصدق أن بيتي التي كانت أمس متوقدة بالحياة تصبح اليوم جثة هامدة... إنني في حلم مزعج.

سألها المفتش كروم قائلاً: هل كانت علاقتك بها وطيدة؟

- كانت أقدم مني في العمل لأنني بدأت عملي في مارس الماضي، ورأيي عنها أنها كانت فتاة لطيفة هادئة لا تميل كثيراً إلى الضحك والمزاح، ولكن هذا لا يعني أنها كانت ثقيلة الظل أو باردة العواطف، وإنما أقصد أن أقول إنها كانت متحفظة في علاقاتها مع زميلاتها هنا.

وبعد حديث طويل، فهمنا من الآنسة هيلي أنها لم تكن صديقة للمجني عليها وأنها (أي بيتي برنارد) كانت تتبادل الحب مع شاب يشتغل كاتباً في مؤسسة لتأجير المساكن والمنازل المفروشة بالقرب من المحطة وأن الشاب وسيم تتمناه كل فتاة.

وبعد انصرافها تحدثنا مع المضيفتين الاحتياطيتين، ولكننا لم نخرج من حديثنا معهما بشيء جديد.

* * *

الفصل السادس

كان والدا بيتي برنارد يعيشان في فيلا صغيرة تقع بين خمسين مسكناً مشابهاً لها، مشيدة في ضاحية المصيف. كان الوالد، السيد برنارد، رجلاً كبير الجسم حائر السمات في نحو الخامسة والخمسين من عمره، ويلوح أنه رآنا مقبلين فوقف ينتظرنا عند مدخل مسكنه. وقال بعد أن حيانا عند هبوطنا من السيارة: تفضلوا بالدخول أيها السادة.

أخذ المفتش كيسلي يقدمنا إليه الواحد بعد الآخر، حتى إذا علم الوالد أن المفتش كروم من رجال اسكتلانديارد قال بحماس: هذا شيء طيب جداً، نعم، يجب أن تبذل اسكتلانديارد جهدها للقضاء على ذلك المجنون الذي قتل طفلتي.

واختلج وجهه بالألم الممض فلم يتم عبارته. وفي غرفة الاستقبال قال: لا أدري هل ستستطيع زوجتي المسكينة أن تحضر لاستقبالكم أو لا، فالواقع أن الصدمة قد هدت كيانها.

ولكن زوجته استطاعت أن تحضر بعد فترة وجيزة وهي تحاول جاهدة أن تسيطر على نفسها فلا تستأنف البكاء،

وكانت عيناها المتورمتان تدلان على كثرة الدموع الحارة التي ذرفتها طيلة الليل. قال زوجها وهو يربت على كتفها ويهيئ لها مقعداً تجلس عليه: لقد كان نائب الحكمدار رحيماً بنا، فأبى أن يسألنا عن شيء بعد أن بلغنا النبأ، ولا شك أنه أراد أن يتركنا بضع ساعات نسترد فيها بعض هدوئنا.

وغمغمت السيدة برنارد بصوت كله الدموع: إنه لأمر فظيع، إنها قسوة مريرة... قسوة ليس لها مثيل.

قال المفتش كروم: الأمر فظيع حقاً يا سيدتي، ولهذا أرجو أن نعرف كل ما يمكن من الحقائق حتى نقبض على القاتل في أسرع وقت.

وأومأ السيد برنارد موافقاً بينما أردف كروم قائلاً: كانت بيتي تقيم معكما هنا كما فهمت وكانت تعمل مضيفة في مقهى جنجركات؟

- نعم.

- وبيتكم هذا جديد، أليس كذلك؟ أين كنتم تقيمون من قبل؟

- كنت أعمل في تجارة الحديد بمدينة كنجتون، وقد اعتزلت العمل منذ عامين وكنت أرجو دائماً أن أقضي بقية عمري في بيت على شاطئ البحر.

- إن لك ابنتين؟

- أجل، الكبرى تعمل في مكتب بلندن.

- ألم تنزعج حينما تأخرت ابنتك عن الحضور أمس؟

قالت السيدة برنارد بصوتها الباكي: لم نعرف أنها قد تأخرت، فأنا وزوجي ننام عادة في ساعة مبكرة. ننام في الساعة التاسعة مساء، ولهذا لم نعرف أن بيتي تأخرت في الحضور إلاّ بعد أن جاء رجال الشرطة.

وتهدج صوت الأم وتوقفت عن إتمام الحديث فقال كروم: هل كان من عادة ابنتك أن تتأخر في العودة إلى البيت؟

قال الوالد: أنت تعرف كيف تتصرف الفتيات في هذا الزمن يا سيدي المفتش، إنهن يرفضن القيود ويتمادين في التحرر من رقابة الآباء. ولكن بيتي كانت لا تتأخر عن الحادية عشرة مساء بوجه عام.

- وكيف كانت تدخل البيت؟ هل هناك من يفتح لها الباب؟

- لا، كنا نضع لها المفتاح تحت مشاية الباب.

- يقولون إن ابنتك مخطوبة لشاب؟

- لم تكن مخطوبة رسمياً، ولكن علاقتها به كانت مقدمة للخطبة. اسمه دونالد فريزر، وهو شاب لطيف مستقيم، ولا شك أنه سيحزن أشد الحزن.

- هل يعمل كاتباً في مؤسسة لتأجير المنازل؟

- نعم، مؤسسة كورت وبرنسكيل.

- هل كان معتاداً أن يلتقي بابنتك كل ليلة بعد أن يفرغا

من العمل؟

- لا، ليس كل ليلة. مرة أو مرتين في الأسبوع فقط.

- ألم تعرف ما إذا كانت تنوي مقابلته الليلة الماضية أم لا؟

- لم تقل لنا شيئاً عن هذا. ولم تكن بيتي تكثر الحديث عن شؤونها الخاصة معنا أو مع غيرنا، ولكنها كانت بصفة عامة فتاة طيبة مستقيمة. آه! إنني لا أصدق، لا أصدق!

- تمالك نفسك يا سيد برنارد.

- أتمنى لو أستطيع أن أضحي بحياتي لأعاونكم في القبض على ذلك المجرم. لقد كانت بيتي فتاة مرحة ضاحكة مقبلة على الحياة كالطائر الغريد، ولا أذكر إنها أساءت إلى أحد أو ارتكبت شيئاً تستحق اللوم عليه. إنها لا تستحق هذه الميتة، لست أدري لماذا قتلها ذلك المجرم المجهول، لا أدري إطلاقاً!

فقال كروم مواسياً: تأكد يا سيد برنارد أننا لن نستريح حتى نضع أيدينا على ذلك المجرم. والآن أحب أن ألقي نظرة على غرفة بيتي الخاصة، إذ ربما نجد بين أوراقها أو رسائلها ما ينير لنا السبيل.

فنهض السيد برنارد وقال: تفضلوا معي.

ومضى أولاً، وتبعه المفتش كروم ثم المفتش كيسلي، ثم بوارو وأخيراً أنا.

توقفت قبل الوصول إلى غرفة بيتي لأحكم رباط حذائي، وعندئذٍ سمعت سيارة أجرة تقف أمام باب المسكن، فنظرت من النافذة فرأيت فتاة في نحو الخامسة والعشرين تقفز منها وتدفع الأجر للسائق، ثم تدخل البيت حاملة حقيبة سفر صغيرة في يدها. وما كادت تراني حتى تسمرت في مكانها وتمتمت قائلة: من أنت؟ وهبطت الدرجات القليلة التي تفصلنا وأنا في حيرة من أمري، إذ لم أكن أدري هل أذكر لها اسمي أو أكتفي بالقول بأنني من رجال الشرطة. وأراحتني بقولها: آه، أستطيع أن أستنتج من أنت...

ورفعت قبعتها البيضاء الصغيرة فأمعنت النظر إلى وجهها الذي لم يكن بالغ الجمال وإن لم يخلُ من الجاذبية وقلت لها: أنت الآنسة برنارد، أليس كذلك؟

- نعم، ميجان برنارد. أنت من رجال المباحث، أليس كذلك؟

- الواقع أنني...

فقاطعتني قائلة: لا أظن أن لديّ ما أقوله لك، فقد كانت أختي فتاة طيبة مستقيمة ليس لها أي اتصال بالرجال. طاب صباحك.

وأرسلت ضحكة قصيرة تعبر عن التحدي وأردفت قائلة: هذه هي العبارات التقليدية التي تقال في مثل هذه المناسبة، أليس كذلك؟

- أنا لست مندوباً صحفياً إذا كان هذا ما ظننت.

فتلفتت حولها وقالت: حسناً، من أنت إذن؟ أين أبي وأمي؟

- إن أباك مع رجال المباحث في غرفة أختك الخاصة.

وارتسم التردد على وجه الفتاة برهة، ثم إذا هي تقول فجأة: تعال معي.

تبعتها إلى غرفة صغيرة بجوار المطبخ، وفيما أنا أحاول إغلاق الباب إذا بوارو ينفلت داخلاً ويغلقه وراءه وهو يقول منحنياً للفتاة: الآنسة برنارد كما أظن؟ وقلت أنا لها: هذا هو السيد هيركيول بوارو المخبر السري الخاص.

قالت الفتاة: لقد سمعت عنك يا سيدي. يقولون إنك بارع في الكشف عن الجرائم المعقدة التي يعجز رجال اسكتلانديارد عن حلها.

- إنهم يبالغون يا آنستي.

جلست الفتاة على حافة مائدة في وسط الغرفة، ثم قالت: إنني لا أفهم لماذا يهتم السيد بوارو بجريمة عادية كهذه؟

فقال بوارو: إن الذي لا تفهمينه يا آنستي والذي لا أفهمه أنا قد يملأ مجلدات ضخمة، ولكن هناك أشياء يمكن أن يفهمها كل إنسان.

- مثل ماذا؟

- مثل الموت الذي يجعل الأحياء لا يتحدثون عن الموتى إلاّ بالخير، مع أن هذا قد لا يكون من الصدق في

شيء. لقد سمعتك الآن مثلاً وأنت تقولين لصديقي الكابتن هيستنغز إن أختك كانت فتاة طيبة مستقيمة ليس لها علاقات بالرجال، وقد أدركت من نبرات صوتك أنك تريدين أن تقولي عكس هذا، وسواء أكنت مصيباً في هذا الإدراك أم مخطئاً، فالمهم أنني أريد أن أتحدث مع شخص يعرف كل شيء عن بيتي ويذكر كل ما يعرفه بلا مجاملة أو مراوغة حتى نستطيع أن نحدد موقفنا من هذه الجريمة.

صمتت الفتاة برهة كانت خلالها تحملق في وجه بوارو، وفجأة قالت: كانت بيتي فتاة حمقاء متهورة.

* * *

انحنى بوارو للفتاة في إعجاب وقال: أحيّي فيكِ هذه الصراحة يا آنسة برنارد، وقد صدق حدسي بأنك فتاة لا ينقصها الذكاء.

- كنت أحب بيتي كل الحب، ولكن هذا الحب لم يكن يحجب عن عيني الحقيقة، وهي أنها كانت غبية ومتهورة لا تعرف ما يضرها وما ينفعها، وكثيراً ما قلت لها هذا في بعض المناسبات، وهذا ما تفعله الأخوات عادة.

- وهل كانت تهتم بملاحظاتك ونصائحك؟

- لا أظن.

- أرجو أن تكون إجاباتك محدودة يا آنستي.

ترددت الفتاة برهة، ثم قالت أخيراً: لم تكن بيتي أبداً

شريرة بطبعها أو منحلة الأخلاق، وأحب أن تتأكد من هذه الحقيقة تماماً. إنها لم تكن من النوع الذي يقضي نهاية الأسبوع مع أي رجل يدفع الثمن، لا، أبداً. كل ما في الأمر أنها كانت فتاة لعوباً في براءة، تحب أن تخرج مع الشبان إلى النزهات ودور السينما وأن تسمعهم وهم يرددون عبارات الغزل لها، هذا هو كل ما في الأمر.

- هل كانت جميلة؟

عندئذٍ تناولت ميجان من حقيبة يدها صورة صغيرة وقدمتها إلينا، وقد رأينا في الصورة وجهاً باسماً لفتاة لا تستطيع أن تقول بأنه جميل. قال بوارو وهو يعيد الصورة لميجان: إنها كثيرة الشبه بك.

- لا، بل كانت أجمل مني.

- حسناً، وكيف كانت علاقتها بالشاب دونالد فريزر؟

- كانت تحبه، ولكنه كان يحبها بجنون بينما هي كانت تحبه باعتدال، وكثيراً ما كنت أخشى أن ينفض يديه منها يأساً بسبب تصرفاتها التي طالما أثارت المنازعات بينهما. هذا كل ما لديّ من أقوال. طاب يومكما.

لكن بوارو أسرع يقول لها قبل أن تنصرف: مهلاً يا آنستي. إن الجريمة التي ذهبت أختك ضحيتها ليست من الجرائم البسيطة التي تحدث كل يوم، إنها أخطر من هذا بكثير، ومن ثم أرجوك أن تتريثي قليلاً وتزيدي من تعاونك معنا.

ثم راح يسرد عليها ما حدث في أندوفر وحدثها عن دليل

السكك الحديدية الذي وجدت نسخة منه في مسرح الجريمة الأولى ثم في مسرح الجريمة الثانية، وقرأ عليها الرسالتين اللتين تلقاهما من المجرم المجهول. فلما فرغ نظرت الفتاة إليه في دهشة بالغة وقالت: هل حقاً هذا كله يا سيدي؟

- نعم.

- أتعني بقولك هذا أن قاتل أختي رجل مجنون تطغى عليه شهوة سفك الدماء؟

- تماماً.

- أوه! بيتي، بيتي، يا للمسكينة! إذن لم يكن لها ذنب فيما حدث لها؟

- إن في مقدورك الآن يا آنستي أن تحدثينا بكل ما تعلمين حتى نستطيع أن نقدم هذا القاتل المجنون إلى العدالة.

- نعم، نعم. هذا ما ينبغي.

- إذن لنتابع حديثنا الذي انقطع. لقد فهمت أن دونالد فريزر كان ناقماً على تصرفات أختك وأن المنازعات كانت تكثر بينهما بسبب غيرته الشديدة عليها؟

قالت ميجان برنارد بهدوء: سوف أضع ثقتي فيك يا سيد بوارو وأرجو ألا تخبر أحداً بما سأقوله لك عن أختي. الواقع أن دونالد من الشبان الهادئين الذين يتحملون كثيراً، ولكنهم يختزنون الإساءات ويكبتون المشاعر ثم ينفجرون بعنف شديد، وهذا ما كان يحدث مع أختي. كان شديد الغيرة

عليها وكان يحبها بعنف، ولكن بيتي لم تكن تحبه بمثل هذا العنف، كانت تحبه حقاً ولكنها لم تكن من النوع الذي يكتفي بحب شخص واحد فلا ترى غيره في الدنيا. نعم، إنها لم تكن من هذا النوع وإن كانت تحب الوسامة والجمال في كل شاب تتعرف إليه وتقضي معه فترة من الوقت في نزهة أو سينما. كانت بحكم عملها في المقهى -طبعاً- كثيرة التعرف بالشبان والرجال، لا سيما في موسم الاصطياف. وأؤكد لك أن الأمر لم يكن يزيد بينها وبين أي شاب أو رجل عن الخروج معه في نزهة قد تستغرق اليوم كله أو الذهاب في صحبته إلى دار سينما. وبمعنى آخر، إنها لم تكن جادة في علاقاتها بأي شخص آخر غير دونالد، وكثيراً ما كانت تقول لي إنها سوف تتزوجه في النهاية وتستقر معه في حياة زوجية سعيدة بعد أن أشبعت نفسها باللهو والمرح.

وتوقفت ميجان برهة عن الحديث، فقال بوارو: إنني أفهم تماماً هذا الوضع يا آنسة برنارد، استمري.

- ولكن دونالد فريزر لم يكن يفهم هذا الوضع، وإنما كان يفهم أن كان عليها أن تحبه كما يحبها تماماً بنفس القوة والإخلاص والتفاني، وقد أدى هذا الاختلاف في فهم الحب إلى منازعات شديدة بينهما.

- متى كانت آخر هذه المنازعات؟

- منذ شهر تقريباً. كنت قد عدت من عملي في نهاية الأسبوع عندما علمت أنهما تشاجرا بعنف، حتى أن بيتي فزعت من دونالد. ولكنني صالحتهما وأسرفت في تعنيف بيتي

وحاولت أن أبين لها خطأ ذلك التمادي في العبث واللهو مع الشبان الآخرين، وقد أكدت لي بدورها أنها تحب دونالد وأن كل علاقاتها بغيره مجرد صداقة عابرة بريئة وتسلية لا ضير فيها. وكانت قد تعودت بعد منازعة شديدة سابقة أن تكذب عليه أحياناً خوفاً من إثارته. كان مبدؤها أن الذي لا يعرفه العقل لا يحزن عليه القلب، وقد حدثت هذه المنازعة الأخيرة لأن بيتي قالت له إنها ستذهب لقضاء يوم في بلدة هيستنغز مع صديقة لها، ولكن دونالد اكتشف أنها ذهبت إلى بلدة إيستبورن مع صديق، وعلم أن هذا الصديق متزوج وأنه كان يخرج مع بيتي سراً. هذا ما أثاره وأخرجه عن طوره، وقد احتجّت بيتي على غضبه قائلة إنهما لم يتزوجا بعد وإن من حقها أن تخرج مع من تشاء، وقد ضاعف هذا من ثورة دونالد حتى كان يرتعد ويصيح قائلاً إنه سيضطر ذات يوم إلى، إلى...

- إلى ماذا يا آنسة برنارد؟

فقالت بصوت خافت: إلى ارتكاب جريمة.

- وهذا يجعلك خائفة من الحديث في هذا الموضوع؟

- لم أكن أظن أنه جاد في تهديده إطلاقاً، ولا أعتقد لحظة أنه هو القاتل ولكنني كنت أخشى أن أتحدث بهذا كله فألفت إليه أنظار رجال المباحث، لا سيما وأن عدداً كبيراً من الناس قد سمعوه وهو يقول هذا.

فقال بوارو: لولا غرور المجرم المجهول الذي يبدو في وضعه لدليل السكك الحديدية كل مرة مع الجثة لتركزت الشبهات على دونالد فريزر فعلاً.

في تلك اللحظة صلصل جرس الباب الخارجي، فأطلت ميجان برأسها خلسة من النافذة ثم عادت تقول: إنه دونالد.

فقال لها بوارو: دعيه يأتي إلينا أولاً قبل أن يراه أصدقائي المفتشون.

وذهبت ميجان حيث غابت لحظة ثم عادت ومعها الشاب دونالد فريزر.

* * *

الفصل السابع

أحسست بالعطف على الشاب حين رأيته مقبلاً مع ميجان، ذلك أن وجهه الشاحب المرهق كان ينم عما يختلج في أعماق نفسه من آلام وأحزان. كان وسيماً رياضي الجسم يكاد يبلغ طوله ستة أقدام، بارز الوجنتين له شعر أحمر كألسنة اللهب. وكان يقول لميجان وهو مقبل معها: ما هذا يا ميجان؟ لماذا تدخليننى هنا؟ لقد سمعت الآن فقط أن، أن بيتي...

وتهدج صوته ثم ترنح في وقفته، فقدم إليه بوارو مقعداً تهالك عليه، ثم جلس منتصباً في مقعده وهو يقول في اضطراب: هل حقاً ما سمعت؟ هل ماتت بيتي مقتولة؟

- نعم يا دونالد.

فقال بلهجة آلية: وهل جئت من لندن فوراً يا ميجان؟

- نعم، لأن أبي اتصل بي تليفونياً.

- في قطار التاسعة والنصف على ما أظن؟

- نعم.

وبعد برهة صمت عاد يقول: وهل يقوم رجال المباحث

بتحرياتهم الآن؟

- إنهم في الطابق الأعلى الآن، في غرفة بيتي.

- إنهم لا يعرفون من...؟ ليست لديهم أية فكرة عن...؟ ثم توقف عن الحديث فجأة وقد عاد وجهه إلى الامتقاع، وهنا تقدم بوارو منه قليلاً وقال له: ألم تخبرك بيتي أين كانت تنوي الذهاب ليلة أمس؟

- قالت إنها ستذهب مع صديقة لها إلى بلدة سانت ليونارد.

- وهل صدّقتها؟

هتف دونالد بحرارة: ماذا تعني بالله عليك؟

وامتقع لون وجهه بانفعالات عنيفة جعلتني أؤمن أن بيتي كانت على صواب في تجنبها إثارة غضبه، وقال بوارو: إن سفاك دماء مجنوناً قد قتل بيتي، ولكي نصل إلى الحقيقة يجب أن نلتزم الصراحة التامة في أحاديثنا.

وهنا قالت ميجان: نعم يا دونالد، ليس هذا وقت العواطف. يجب أن تذكر كل ما تعرفه في هذا الشأن.

ونظر دونالد بارتياب إلى بوارو وقال: من أنت؟ أنت لست من رجال المباحث العامة.

قال بوارو ببساطة توحي بأنه يؤمن تماماً بما يقول: أنا أفضل منهم.

وقالت ميجان: صارحه بكل شيء يا دونالد.

فهدأت ثائرة دونالد وقال ببساطة: إنني غير واثق من شيء. كنت قد صدّقتها حين قالت لي هذا ولكنني بدأت أتساءل فيما بعد، بدأت أرتاب...

- لماذا؟

- إنني أشعر بالخجل الآن من شكوكي في أمرها. وأياً كان الأمر فقد ذهبت إلى شاطئ البحر لأراقبها وهي تنصرف من المقهى، ولكنني تراجعت خشية أن تراني بيتي فتعتقد أنني أراقبها.

- إذن ماذا فعلت؟

ذهبت إلى سان ليونارد حيث بلغتها في الثامنة مساء، ثم شرعت أراقب جميع السيارات العامة الآتية من بكسهيل آملاً أن أراها وهي تهبط مع صديقتها من إحداها، ولكنني لم أرها.

- ثم ماذا؟

- غضبت جداً وأيقنت أنها... أنها مع رجل آخر، وأنه من المحتمل أن يكون قد صحبها في سيارته إلى بلدة هيستنغزز. وذهبت إلى تلك البلدة ورحت أتطلع إلى فنادقها ومشاربها ومطاعمها وأحوم حول مداخل دور السينما فيها، ثم مضيت إلى الشاطئ. وكانت كلها تصرفات حمقاء لأنها حتى لو كانت بهذه البلدة لما أمكن أن أعثر عليها بمثل هذه البساطة، هذا فضلاً عن وجود مصايف أخرى كثيرة جداً على طول الشاطئ. وصمت برهة ريثما هدأت نفسه الثائرة ثم عاد يقول: ويئست أخيراً من لقائها فعدت.

- في أي وقت؟

- لا أدري، لقد عدت ماشياً، ولا شك أن الليل كان قد انتصف حين بلغت مسكني.

- ثم؟

وهنا فتح باب المطبخ ودخل المفتش كيسلي قائلاً: أهذا أنت هنا؟

وشق المفتش كروم طريقه بسرعة وألقى نظرة سريعة على ميجان ودونالد، وعندئذٍ قدمهما بوارو إليه قائلاً: الآنسة ميجان برنارد والسيد دونالد فريزر. ثم قال للشاب والفتاة موضحاً: وهذا المفتش كروم من اسكتلانديارد.

استدار نحو المفتش وأردف قائلاً: كنت أتحدث أثناء تحرياتك في الطابق العلوي مع الآنسة ميجان والسيد دونالد آملاً أن أجد شيئاً يلقي بعض الضوء على الجريمة.

فقال كروم وهو مشغول الفكر بالشاب والفتاة: آه، حسناً.

تراجع بوارو إلى الصالة وأسرعت وراءه حيث قلت له: هل وصلت إلى شيء؟

- عرفت فقط يا هيستنغز أن القاتل على جانب كبير من الاعتزاز بالنفس.

ولم أجد الشجاعة الكافية لأقول له إنني لم أفهم شيئاً. ثم عقدنا مؤتمراً آخر من سلسلة المؤتمرات التي عقدناها لبحث

موضوع ذلك القاتل الخفي. كان هذا المؤتمر الأخير خاصاً بتقرير ما إذا كان ينبغي أو لا ينبغي أن نعلن على الرأي العام موضوع الرسائل التي بعث بها المجرم المجهول إلى بوارو، ذلك أن جريمة بكسهيل كان لها أثر كبير في الرأي العام لأنها وقعت أولاً في مصيف مزدحم بالمصطافين، ولأن الضحية فيها كانت هذه المرة فتاة شابة على جانب من الجمال.

وبعد مناقشات طويلة اتفقنا على أن المجرم المجهول يعاني نوعاً من جنون العظمة وأنه لم يرتكب هذه الجرائم ويرسل إلى بوارو هذه الرسائل إلاّ سعياً وراء نوع من الشهرة التي ترضي غروره المكبوت، وانتهينا أخيراً إلى قرار مؤداه أن ننتظر. فإذا أرسل إلى بوارو رسالة ثالثة يحدد فيها المكان والزمان اللذين سيرتكب فيهما جريمته الثالثة أعلنّا على الناس جميعاً عن طريق جميع الصحف والإذاعة كل شيء عنه حتى يأخذ الجميع حذرهم ويصبح من العسير عليه تنفيذ جريمته، كما يمكن الإيقاع به إذا هو حاول تنفيذها.

* * *

وإنني أتذكر بوضوح وصول الرسالة الثالثة التي كتبها ذلك المجرم المجهول الذي يرمز لنفسه بالأحرف الهجائية الثلاثة «أ.ب.ج». ولست بحاجة لأن أذكر أن رجال المباحث اتخذوا جميع الاحتياطات والإجراءات اللازمة لمواجهة ذلك المجرم قبل وصول رسالته الثالثة مباشرة، ومن بين هذه الإجراءات أن عُهد إلى شاويش شاب من رجال المباحث بالبقاء في مسكن بوارو عند غيابنا عنه ليكون حاضراً عند وصول الرسالة

فيستطيع الاتصال بإدارة اسكتلانديارد دون أي تأخير. وازدادت أعصابنا توتراً مع مرور الأيام ورفض بوارو أن يغادر لندن رغم الجو الخانق الذي كان يسودها في تلك الفترة، وقد لاحظت أن بوارو كان يعاني من قلق نفسي شديد لإحساسه بأن المجرم المجهول يتحداه شخصياً وأن بعض الأبرياء سوف يدفعون ثمن التحدي إذا لم يقع المجرم في أيدي العدالة قبل أن يضيف إلى جريمتيه السابقتين جرائم أخرى.

كان يوم الجمعة هو اليوم الذي وصلت فيه الرسالة الثالثة، وقد جاءت مع بريد الساعة العاشرة مساء. فما أن سمعت طرقات ساعي البريد المعهودة حتى وثبت مسرعاً وهرعت إلى صندوق بريد بوارو الخاص حيث وجدت فيه أربع أو خمس رسائل، وكانت بينها رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة تماماً كسابقتيها! وهتفت قائلاً وأنا أنطلق بها إلى بوارو: بوارو، لقد وصلت الرسالة.

فصاح قائلاً: افتحها، افتحها يا هيستنغز بسرعة، إننا في حاجة إلى كل لحظة لنتخذ الإجراءات اللازمة.

وفضضت الرسالة بسرعة ورحت أقرأها بصوت مسموع:

أيها المسكين يا سيد بوارو، هل أدركت الآن أنك لست بارعاً في القبض على المجرمين وفي الكشف عن الجرائم الغامضة كما كنت تظن؟ يبدو إن الشيخوخة قد نالت منك!

حسناً، لنرَ ماذا يمكن أن تفعل هذه المرة. سأجعل الأمر سهلاً جداً، موعدنا في اليوم الثلاثين من هذا الشهر وفي بلدة جيرستون. حاول أن تفعل شيئاً فإنني

قد بدأت أشعر بالتفاهة وأنا أجول في الميدان بمفردي!
أرجو لك التوفيق.

صديقك: أ ب ج.

- جيرستون، ترى أين تقع؟

وسمعت بوارو يقول بانفعال: هيستنغز! متى كتب هذا الخطاب؟ هل عليه تاريخ الإرسال؟

فنظرت إلى الرسالة في يدي وقلت: نعم، إنها تحمل تاريخ اليوم السابع والعشرين.

- وهل حدد موعد جريمته الثالثة باليوم الثلاثين؟

- نعم.

- يا إلهي! هل نسيت أننا في اليوم الثلاثين فعلاً؟

ونظرت إلى التقويم الموجود على الجدار ثم قلت: عجباً! ولكن ما معنى...؟

اختطف بوارو المظروف من يدي وقرأ العنوان المكتوب عليه: «السيد هيركيول بوارو، عمارات وايت هورس»، ثم قرأ ملاحظات موظفي البريد المكتوبة في أركان المظروف: «غير موجود في عمارات وايت هورس» و«يجري البحث عنه في وايت هورس كوارث» ثم «يعاد البحث عنه في عمارات وايت هافن».

كان بوارو يقيم في مسكن بعمارات وايت هافن. وغمغم قائلاً في انزعاج شديد: يا إلهي! هل الأقدار تساعد هذا

المجرم فتجعله يكتب العنوان خطأ لكي تأتي الرسالة متأخرة عن موعدها ثلاثة أيام؟ أسرع، يجب أن تتصل باسكتلانديارد فوراً.

وبعد لحظة كان بوارو يتصل تليفونياً بالمفتش كروم الذي ما كاد أن يعرف ما حدث حتى كتم مجموعة من السباب واللعنات التي تزاحمت بين شفتيه، ثم قال لبوارو إنه سيتصل فوراً ببلدة جيرستون. وضع بوارو سماعة الهاتف ثم قال وهو ينظر في ساعته: الساعة الآن العاشرة والثلث، أي لا يزال باقياً على منتصف الليل ساعة وأربعون دقيقة. ترى هل نستطيع أن نصل إلى جيرستون قبل منتصف الليل؟ وهل ذلك المجرم المجنون لم يرتكب جريمته بعد؟

فتحت دليل السكك الحديدية وقلت وأنا أقرأ فيه: بلدة جيرستون على البحر بإقليم ديفون، تبعد عن بادنجتون بمئتين وأربعة أميال وثلاثة أرباع الميل، عدد سكانها ٦٥٦ نسمة. إنها محدودة السكان جداً ولا بد أن أي شخص غريب يدخلها سيلاحظه السكان فيها.

- هذا لن يمنع وقوع جريمة قتل أخرى. ما هي مواعيد القطارات المارة بها؟ أعتقد أن القطار في هذه الحالة أسرع من السيارة. هناك قطار منتصف الليل يوجد فيه مركبة نوم ويصل في الساعة السادسة وثماني دقائق إلى نيوتن وفي الساعة السابعة والربع صباحاً إلى جيرستون.

- من محطة بادنجتون؟

- أجل.

- سوف نركب هذا القطار يا هيستنغز.

- قبل أن نعرف ماذا حدث؟

- وما جدوى معرفتنا؟

وفيما كان بوارو يتصل تليفونياً مرة أخرى باسكوتلانديارد أسرعت أنا بوضع بعض الحاجيات الضرورية في حقيبة السفر، ولما عاد بوارو قال إن بعض رجال اسكتلانديارد سيلتقون بنا على رصيف المحطة وإنه يحسن بنا أن نأخذ معنا الرسالة الثالثة ليطّلعوا عليها.

كان المفتش كروم أول من رأيناه في انتظارنا على رصيف المحطة، وقد قال مجيباً على نظرة بوارو المتسائلة: لا، لم تصلنا أية أنباء بعد. إن رجالنا قد حذروا بالتليفون جميع الأشخاص الذين تبدأ أسماؤهم بالحرف «ج» في تلك البلدة. لا تزال الفرصة سانحة أمامنا، أين الرسالة؟

وبعد أن فحصها صفر منزعجاً وهو يقول: يا لسوء الحظ! إن الحظ يساعد هذا اللعين ضدنا.

فقلت متسائلاً: ألا يمكن أن يكون قد تعمد هذا الخطأ؟

فهزّ كروم رأسه وقال: لا، إنه حريص على التزام المبادئ، وهذا النوع من الجنون يجعل صاحبه شديد التشبث بالفكرة المسيطرة عليه. وما دام قد قرر أن يتحدى شخصاً معيناً فإنه لا يلجأ إلى المراوغة والخداع، وأستطيع أن أراهن إنه يشرب شراب «وايت هورس».

فأومأ بوارو برأسه وقال: هذه لمحة بارعة يا سيد كروم،

لعل الزجاجة كانت أمامه وهو يكتب العنوان، وكثيراً ما تكتب اليد ما تراه العين على غير وعي من الإنسان.

ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتي كروم وقال: إذا أسعدنا الحظ ولم يحدث شيء حتى الآن في جيرستون فلا شك أن المجرم موجود فيها الآن، إنه لن يغادرها حتى يحقق مأربه لأنه سيعز عليه كثيراً أن يفشل!

وفيما كان القطار يتحرك من المحطة لمحنا أحد رجال المباحث يسرع نحونا ثم ينقر على نافذة المقصورة التي جلسنا فيها، فأسرع كروم وفتحها قائلاً: ماذا؟ هل وصلت إليكم أنباء ما؟

لم نسمع ما قاله الرجل ولكن وجه كروم كان شديد التجهم وهو يلتفت إلينا قائلاً: لقد عُثر على السير مايكل جيركن مقتولاً بضربة قاضية على مؤخرة رأسه.

كنا جميعاً نعرف السير مايكل جيركن، أخصائي أمراض العيون الذي لم يكن مشهوراً جداً بين الطبقات الشعبية. وكان قد تقاعد عن العمل بعد بلوغه سن الستين ليتفرغ لهوايته الخاصة، وهي جمع التحف الخزفية الثمينة المصنوعة في الصين، لا سيما القديم منها. وكان بعد تقاعده قد ورث عن عمه ثروة طائلة أتاحت له فرصة الحصول على الشيء الكثير من هذه التحف من مختلف المزادات العالمية، وكان متزوجاً ولكنه لم ينجب أطفالاً. كان يعيش في منزل خاص على شاطئ البحر في إقليم ديفون ولا يذهب إلى لندن إلاّ نادراً. وكان من الواضح أن مقتله سوف يثير في الرأي العام (وفي الصحافة بوجه خاص) ضجة كبيرة لم يحدث لها مثيل منذ أعوام، ولا

سيما وقد وقعت الجريمة في شهر أغسطس حيث يكون معظم الناس متلهفين على ما يشغل أذهانهم.

قال بوارو: آه، من يدري! لعل هذه الضجة سوف تؤدي الغرض الذي لم تستطع جهودنا أن تؤديه، فلا شك أن الناس جميعاً سوف يهبّون للبحث عن ذلك المجرم المجهول.

فقلت آسفاً: هذا ما يريده فعلاً.

- نعم، ولكن النجاح مسكر، ولا شك أن شعوره بالزهو سوف يدفعه إلى ارتكاب بعض الأخطاء التي توقع به في النهاية.

وبعد برهة من الصمت أردف بوارو قائلاً: إننا نحارب حتى اليوم في الظلام، لا نعرف شيئاً محدداً عن ذلك المجرم المجهول، بل إننا لا نعرف -إلاّ تخميناً- الدوافع التي تدفعه إلى ارتكاب هذه الجرائم، ومن أسوأ الأمور أن يقتل الإنسان أشخاصاً غرباء عنه بدون أسباب أو مبررات.

فقلت وأنا أرتعد: ألا يكفي أن يكون الجنون مبرراً؟

- نعم، إلى حد ما، وهذا موضع الخطر.

وبعد برهة صمت قلت في شيء من الحزم: أياً كانت الأحوال، فمن واجبنا جميعاً أن نبذل كل ما يمكن من جهود حتى نضع حداً لهذه الجرائم البشعة.

- طبعاً، طبعاً، علينا أن ننام الآن لأن هناك أعمالاً كثيرة في انتظارنا غداً.

* * *

الفصل الثامن

تقع بلدة جيرستون بين مصيف بريكسهام من جهة وبانتون وتوركاي من جهة أخرى، وتقوم على منتصف انحناءة خليج توربای من الجهة اليمنى، وكانت قبل عشر سنوات مجرد ملعب للجولف، أو على الأصح ساحة لملاعب الجولف في تلك المنطقة. وتمتد وراء الملاعب أرض خضراء تصل إلى شاطئ البحر ولا يوجد فيها غير بيت ريفي أو بيتين، إلاّ أنها قد نمت وزحف العمران فيها في السنوات الأخيرة وأقيمت بها المنازل والشوارع والفيلات المتناثرة على الشاطئ.

كان السير مايكل جيركن قد اشترى قطعة أرض تشرف على البحر من ربوة عالية وأقام فيها منزلاً على الطراز الحديث يحتوي على مسكن خاص لصاحبه، وجناحين يحتويان على مجموعات التحف الثمينة التي يهوى السير مايكل جمعها. وصلنا إلى ذلك المكان في الساعة الثامنة صباحاً، حيث وجدنا أحد رجال الشرطة المحليين في استقبالنا على المحطة وهو الذي زودنا بالمعلومات الأولى عن الحادث. علمنا منه أن السير مايكل كان قد اعتاد أن يقوم بجولة على قدميه بعد العشاء كل ليلة، وحين اتصل رجال الشرطة بمنزله تليفونياً ليحذروه كان ذلك بعد الحادية عشرة مساء. وعلموا أنه لم يعد بعد من

جولته، ولما كان خط سيره معروفاً فإن البحث عنه لم يستغرق فترة طويلة، إذ ما لبث أن عثر رجال الشرطة على جثته في مكان ما من الطريق الذي اعتاد أن يتجول فيه. كانت الوفاة قد نتجت عن ضربة عنيفة أصابت مؤخرة الرأس، وبجانب الجثة وجدوا دليل الحروف الهجائية للسكك الحديدية موضوعاً بشكل مقلوب.

وصلنا إلى البيت في نحو الثامنة وعشر دقائق حيث فتح لنا الباب خادم عجوز كان الحزن الشديد واضحاً على وجهه، وقد حيّاه رجل الشرطة المحلي بقوله: طاب صباحك يا ديفريل.

- طاب صباحك يا سيد يلز.

- هؤلاء هم السادة الوافدون من لندن.

- تفضلوا من هذا الطريق أيها السادة.

مضى أمامنا عبر قاعة كبيرة للطعام، وكان على المائدة صحفة عليها وجبة إفطار كاملة. ثم قال: سوف أستدعي السيد فرانكلين.

وبعد لحظات أقبل رجل كبير الجسم أشقر الشعر ملوح الوجه من وهج الشمس. وكان ذلك كما علمنا هو السيد فرانكلين جيركن شقيق المتوفى. كان يبدو عليه من تصرفاته الثابتة أنه رجل اعتاد أن يواجه مثل هذه المواقف العصبية بثبات. وقال لنا: طاب صباحكم أيها السادة.

قام السيد ويلز، رجل الشرطة المحلي، بعملية التقديم

فقال: المفتش كروم من إدارة المباحث العامة، السيد هيركيول بوارو والكابتن هاينز.

فصححت له الاسم بسرعة قائلاً ببرود: هيستنغز.

صافحنا فرانكلين جيركن، كلٌ منا على حدة، وهو يرمقنا بنظرات حادة نافذة ثم قال: اسمحوا لي أن أقدم طعام الإفطار.

وافقنا جميعاً، وسرعان ما جلسنا إلى مائدة حافلة بالبيض المقلي والسجق والجبن والزبد والمربى والشاي. وبعد أن أرضينا بطوننا قال فرانكلين جيركن: إلى العمل الآن. سوف يقدم إليكم المفتش ويلز فكرة عامة عن حادث الأمس، أما من ناحيتي فإنني لا أكاد أصدق ذلك الحديث عن المجرم المجهول الذي يسمي نفسه «أ.ب.ج». هل تريد مني يا سيدي المفتش كروم أن أصدق أن أخي مات قتيلاً بيد مجرم مجنون ارتكب جريمتين قبل ذلك وأنه يختار ضحاياه حسب الترتيب الهجائي لأسمائهم وأنه يضع بجانب كل ضحية دليل القطارات؟

فقال المفتش كروم: هذه هي الحقيقة بقدر ما نعرف حتى الآن يا سيد جيركن.

- ولكن لماذا؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تعود من مثل هذه الجرائم حتى على أشد الناس جنوناً؟

أومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: أحسنت التعبير يا سيد جيركن، هذا هو السؤال الذي يحيرنا جميعاً.

قال المفتش كروم: لا جدوى من البحث عن دوافع الجريمة يا سيد جيركن، هذه مهمة علماء النفس، وإن كنت

شخصياً أعرف أن الجرائم التي يرتكبها المجانين ليس من الضروري أن يكون لها دوافع معقولة. فمثلاً هناك دافع الرغبة عند البعض في إثبات وجودهم أمام الناس وفي إثارة ضجة ضخمة حول أسمائهم، أو أن يصبحوا مشهورين بأية وسيلة بدلاً من بقائهم نكرات.

قال السيد جيركن في شيء من الارتياب وهو يوجه الحديث إلى بوارو: أحقاً هذا يا سيد بوارو؟

فأجاب صديقي قائلاً: نعم للأسف الشديد.

ففكر السيد جيركن برهة ثم قال: إن مثل هذا الرجل لن يستطيع أن يبقى بعيداً عن أيديكم مدة طويلة.

- نعم، نعم. ولكن هذا النوع من الناس يكون عادة على مكر شديد ودهاء بالغ وإحساس عميق بالحقد على المجتمع. إنه واحد من الذين يعيشون في الحياة نكرات لا يحس بهم أحد ولا يهتم بأمرهم مخلوق.

تدخل كروم في الحديث قائلاً للسيد جيركن: أتسمح يا سيد جيركن وتذكر لي بعض ما تعرفه من حقائق عن ظروف أخيك وتجيب على بعض ما سأوجهه إليك من أسئلة؟

- طبعاً، طبعاً.

- هل كان أخوك في حالة صحية ومعنوية طبيعية أمس؟ ألم يستلم رسائل غير منتظرة؟ ألم يحدث ما أشاع الاضطراب في نفسه؟

- أستطيع أن أقول إنه كان في حالة طبيعية من جميع الوجوه.

- ألم يكن هناك ما يثير قلقه واضطرابه؟

- إن القلق والاضطراب يا سيدي المفتش من الحالات الطبيعية التي كان يعيش فيها أخي بصفة دائمة.

- لماذا؟

- لعلك لا تعرف أن زوجته، الليدي جيركن، في حالة صحية مؤلمة. ويمكن القول -فيما بيننا- أنها تعاني من سرطان لا يرجى شفاؤه ولا يُنتظر أن تعيش طويلاً. وقد كانت حالتها الصحية هذه تثير الألم في نفس أخي دائماً، وأنا نفسي فوجئت بالتغيير الكبير الذي طرأ عليه عندما عدت من الشرق الأقصى بعد غيبة طويلة.

تدخل بوارو في الحديث قائلاً: لنفرض أن أخاك قد وُجد مقتولاً بطلق ناري في سفح تل أو في جانب طريق وأن المسدس كان بجانبه، فماذا يكون رأيك في هذه الحالة؟

فقال جيركن: كنت أعتقد فوراً أنه قد انتحر.

وهنا قال المفتش كروم وهو يلوي شفتيه قليلاً: هذا الحادث ليس انتحاراً على كل حال. والآن يا سيد جيركن، هل كان أخوك معتاداً على القيام بجولة على قدميه كل ليلة؟

- أجل.

- كل ليلة بلا انقطاع؟

- أجل، فيما عدا الليالي الممطرة طبعاً.

- وهل جميع المقيمين في البيت معك يعرفون عنه هذه العادة؟

- طبعاً.

- وفي الخارج؟

- لا أفهم ماذا تعني بذلك. ربما كان البستاني يعرف هذه العادة عنه ولكنني شخصياً غير واثق.

- وسكان البلدة؟

- على وجه الدقة ليس لدينا بلدة بالمعنى المفهوم، كل ما في الأمر أن لدينا مكتب بريد وبضعة بيوت صغيرة وبضعة شوارع قليلة، ولكن ليس ثمة محلات ولا منافع عامة يمكن أن تتكون منها بلدة.

- في هذه الحالة يمكن بسهولة أن يثير أي غريب يدخل هذه المنطقة ويتجول فيها الانتباه؟

- على العكس، فإن هذه المنطقة تكون عادة مزدحمة بمختلف أنواع الأشخاص الغرباء في شهر أغسطس. إنهم يفدون من بريكسهام وتوركاري وبايتون في السيارات والحافلات وعلى الأقدام. ثم أشار إلى الجهة اليمنى من الشاطئ وأردف قائلاً: هذه الشواطئ الرملية المسماة برودساند ولبريكاف تعتبر من المناطق التي تستهوي الكثير من المصطافين ليقضوا فيها عطلة نهاية الأسبوع. ولشد ما أتمنى لو أنهم لا يأتون، فإنك لا تدري إلى أي حد من الجمال تكون عليه هذه المناطق في يونيو وفي أوائل يوليو.

- إذن فأنت ترى أن وجود غريب في هذه الناحية لا يثير انتباه أحد.

- نعم، إلاّ إذا كان شاذ التصرفات مخبولاً أو مجنوناً مثلاً.

فقال المفتش كروم بلهجة التأكيد: إن ذلك المجرم لا يبدو مجنوناً أو شاذ التصرفات أمام الناس، وأعتقد أنه جاء أولاً لاستكشاف هذه المنطقة ورسم خطته لارتكاب الجريمة ومعرفة عادة السير مايكل جيركن في المشي كل ليلة. وبهذه المناسبة، ألم يأت رجل غريب أمس ليسأل عن السير جيركن؟

- لا أعرف على وجه اليقين، ولكن يمكننا أن نسأل ديفريل.

رن الجرس فأتى الخادم ووجه إليه ذلك السؤال، فقال الخادم مجيباً: لا يا سيدي، لم يحضر أحد لمقابلة السير جيركن ولم ألاحظ وجود شخص غريب بالقرب من القصر، وكذلك الخادمات لم يرين شيئاً لأنني سألتهن. وانتظر الخادم لحظة قبل أن يسأل قائلاً: هل هذا كل شيء؟

- أجل يا ديفريل، يمكنك أن تنصرف.

وانسحب ديفريل إلى الباب حيث أفسح الطريق لفتاة شابة كانت داخلة، ونهض فرانكلين جيركن عند دخولها وقال يقدمها: هذه هي الآنسة جراي أيها السادة، سكرتيرة أخي.

ولفت انتباهي فوراً بياض بشرتها الناصع الذي يشبه بياض سكان الدول الإسكندنافية، وكان شعرها ذهبياً فاتح اللون جداً

كشعر معظم النساء النرويجيات والسويديات، وكذلك كانت عيناها خضراوين فاتحتين، ولبشرتها ذلك الصفاء المتألق الذي يبلغ حد الشفافية والذي يمتاز به سكان المناطق الشمالية من أوروبا بوجه عام. ومن ناحية السن كانت تبدو في نحو السابعة والعشرين، كما لاح أنها على كفاية ممتازة إلى جانب جمالها الملفت للنظر. قالت وهي تتخذ مجلسها: هل أستطيع أن أقدم إليكم أية مساعدة أو خدمة؟

عرض فرانكلين جيركن عليها أن تأكل ولكنها اكتفت بفنجان شاي، وعندئذٍ سألها كروم قائلاً: هل كنت تشرفين على مراسلات السير مايكل؟

- نعم، كلها.

- أعتقد أنه لم يستلم رسالة أو أكثر موقعة بالحروف «أ ب ج»؟

- «أ ب ج»؟! لا، أنا واثقة تماماً من أنه لم يستلم رسالة موقعة بمثل هذه الأحرف.

- ألم يذكر في معرض حديثه ذات مرة أنه رأى شخصاً يتسكع في طريق جولته المسائية.

- لم يذكر قط شيئاً من هذا القبيل.

- وأنتِ، ألم تلاحظي وجود أحد الأشخاص الغرباء بالقرب من القصر في الأيام الأخيرة؟

- رأيت كثيراً من الغرباء يمرون بالقرب من القصر، فمن

المعتاد أن يكثر وفود بعض المصطافين في هذه المنطقة.

وطلب المفتش كروم أن يذهب إلى المنطقة التي اعتاد السير مايكل أن يتمشى فيها كل ليلة. فمضى فرانكلين أمامنا وخرجنا من باب الشرفة ومعنا الآنسة جراي. كنت أنا وهي في المؤخرة ومن ثم قلت لها على انفراد: لا شك أن ما حدث كان صدمة عنيفة لكم جميعاً.

- إنني أكاد لا أصدق ما حدث. لقد أويت إلى فراشي أمس، وما كدت أستغرق في النوم حتى رن رجال الشرطة جرس الباب الخارجي وسمعت وقع أقدام تجري هابطة، فنهضت لأرى ماذا حدث، وقد رأيت ديفريل والسيد جيركن يحملان المصابيح للمضي إلى الخارج.

- ما هو الوقت الذي اعتاد فيه السير جيركن أن يعود فيه من جولته المسائية؟

- في العاشرة إلاّ ربعاً، وكانت عادته أن يدخل بمفرده من باب جانبي حيث يمضي إلى فراشه أحياناً فوراً، وفي أحيان أخرى يقصد إلى أحد الجناحين اللذين يضمان تحفه الثمينة. ولولا أن رجال الشرطة اتصلوا تليفونياً ليسألوا عنه لما اكتشف أحد غيابه إلاّ في صباح هذا اليوم.

- لا شك أن الحادث كان صدمة رهيبة لزوجته المسكينة؟

- إن الليدي جيركن تكاد تعيش في شبه غيبوبة بسبب المورفين، وأعتقد أنها في حالة لا تكاد تسمح لها بمعرفة ما

يجري تماماً.

كنا عندئذٍ قد خرجنا من باب الحديقة الكبيرة إلى ساحة ألعاب الجولف، وبعد أن اجتزنا ركن الساحة أخذنا نهبط في حارة ملتوية شديدة الانحدار. قال فرانكلين جيركن وهو يشير إلى نهاية الحارة: إنها تؤدي إلى شاطئ البريكاف، ولكن البلدية أنشأت منذ عامين طريقاً فرعياً يمتد من الطريق العام ويؤدي إلى شاطئ برود ساندز ومنه إلى البريكاف، ولهذا السبب قلما يستعمل أحد هذه الحارة للمرور.

سرنا في الحارة حتى رأينا في نهايتها ممراً يؤدي إلى شاطئ البحر، وبعد أن سرنا فيه بين جوانب صخرية ورملية وعرة وجدنا أنفسنا نشرف من مرتفع صخري على البحر وعلى الشاطئ الرملي المرصع بالأحجار البيضاء. كانت الأشجار تحيط بالمنطقة كلها وتصل إلى حافة الماء، وبصورة عامة كان المنظر ساحراً بألوانه الطبيعية التي جمعت في مكان واحد بين خضرة الشجر وصفرة الرمال وبياض الصخور وزرقة الماء. هتفت قائلاً رغماً عني: ما أجمل هذا !

استدار فرانكلين جيركن نحوي بلهفة وقال: أليس المنظر جميلاً فعلاً؟ لا أدري لماذا يترك الناس مثل هذه المناطق الساحرة ويذهبون إلى الريفيرا. لقد زرت معظم أنحاء العالم في مختلف مراحل عمري، وأشهد أمام الله أنني لم أجد منطقة أجمل من هذه.

وكأنما تذكر الموقف ورهبته فخجل من نفسه وعاد إلى الحديث الجاد الرزين وقال: هذا هو الطريق الذي كان يتمشى

فيه أخي كل مساء. كان يأتي إلى هذه البقعة حيث يستريح قليلاً ثم يعود من نفس الممر، ولكنه بدلاً من أن ينحرف في نهايته شمالاً إلى الحارة كان ينحرف في نهايته يميناً فيسير في بعض الحقول حتى يعود إلى القصر.

وأومأ كروم برأسه: كان الأمر سهلاً جداً، لقد تربص القاتل لأخيك وراء هذه الشجرة ثم فاجأه من الخلف.

ارتعدت الفتاة التي كانت واقفة بجانبي، فقال فرانكلين جيركن: تمالكي نفسك يا تورا. إن الموقف عصيب فعلاً ولكن لا جدوى من الانهيار العصبي.

تورا جراي؟ إنه اسم مناسب للفتاة.

وعدنا إلى البيت حيث علمنا أن الجثة قد حُملت منه بعد أن تمّ تصويرها. وفيما نحن نصعد الدرج الواسع رأيت الطبيب يخرج من إحدى الغرف وفي يده حقيبته السوداء، فسأله جيركن قائلاً: هل لديك ما تقوله لنا يا دكتور؟

فهزّ الدكتور رأسه وقال: الحالة واضحة، وسوف أحتفظ بالتفصيلات لجلسة التحقيق، ولكنني أؤكد أن المجني عليه لم يتعذب لحظة، فقد كان الموت مباغتاً وسريعاً. ثم أردف قائلاً: سوف أصعد لأرى الليدي جيركن.

أقبلت ممرضة مستشفى من نهاية الدهليز، فمضى الطبيب إليها وصحبها. ودخلنا الغرفة التي رأيت الطبيب يخرج منها، ولكني لم ألبث أن خرجت منها مسرعاً حيث وجدت تورا جراي واقفة على رأس الدرج وقد ارتسمت على وجهها أمارات

عجيبة، فقلت لها متسائلاً: آنسة جراي؟ هل حدث شيء؟

فحملقت في وجهي برهة ثم قالت بأنفاس لاهثة: إنني أفكر في الحرف «د».

فنظرت إليها ببلاهة وقلت: الحرف «د»؟

- نعم، الجريمة التالية. لا بد أن تفعلوا شيئاً... لا بد أن تحولوا دون وقوعها بأي ثمن.

وأقبل فرانكلين جيركن من الغرفة وقال: ماذا بك يا تورا؟ ما هذا الذي تقولين؟

- أقول يجب وقف هذه الجرائم بأي ثمن.

فقال وهو يعض نواجذه: نعم، طبعاً. إنني أريد أن أتحدث مع السيد بوارو عن، عن... ثم أرسل العبارة التالية على غير انتظار: عن المفتش كروم، هل هو كفء للقيام بهذا العبء؟

قلت له إن المعروف عنه أنه من أكفأ رجال إدارة المباحث العامة. فصمت جيركن برهة ثم قال: إن لديّ خطة قد تؤدي إلى الإيقاع بذلك المجرم المجهول يا سيد بوارو، ولكننا سنتحدث عن هذا في وقت آخر. والآن سأذهب لأرى الليدي جيركن.

نظرت إلى الآنسة جراي، فلما رأيت أمارات التفكير العميق مرتسمة على جبينها قلت لها بعد تردد بسيط: فيمَ تفكرين يا آنسة جراي؟

- إنني أتساءل أين هو ذلك القاتل الآن؟ لقد مضت اثنتا عشرة ساعة منذ وقوع الجريمة الثالثة، أليس ثمة ساحر يمكن أن يقول لنا أين هو الآن وماذا يفعل؟

- إن رجال الشرطة يبحثون.

وأفاقت تورا جراي من ذهولها على كلماتي العادية، ثم أومأت برأسها وقالت: نعم، طبعاً.

وبينما هي تهبط درجات الدرج رحت أردد في ذهني كلماتها: ترى أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟

* * *

غادر السيد ألكسندر بونابرت جوست مسرح توركاي مع الخارجين بعد أن استمتع بمشاهدة الفيلم العاطفي «ليس عصفوراً»، ورمش بعينيه في شمس ما بعد الظهيرة وتلفت حوله كعادته دائماً، أو على الأصح كما يفعل الكلب الضال في الحياة. غمغم لنفسه: "إنها لفكرة". وانطلق باعة الصحف حوله يصيحون: آخر طبعة، مجرم مجنون في بلدة جيرستون... دسّ السيد جوست يده في جيبه فوجد قرشاً اشترى به نسخة من إحدى الصحف المسائية، ولكنه لم يتصفحها فوراً.

ومضى إلى حدائق البرنس جاردنز حيث سار في بطء وتمهل إلى مقعد يواجه ميناء توركاي، فجلس عليه وفتح الصحيفة حيث واجهته العناوين الرئيسية بهذه الأنباء: "مصرع السير مايكل جيركن"، "مأساة رهيبة في بلدة جيرستون"، "المجرم المجهول مجنون رهيب"، وتحت هذا كله قرأ ما يلي:

روعت البلاد منذ شهر واحد بمصرع الفتاة الشابة الحسناء بيتي برنارد في مصيف بكسهيل، ولعلنا نذكر أنه وجد بجانب الجثة دليل «أ ب ج» للسكك الحديدية. وكذلك عثر رجال المباحث على دليل من هذا النوع بجانب جثة السير مايكل جيركن، ومن ثم يرى رجال المباحث أن مرتكب الجريمتين مجرم واحد، فهل يمكن أن يكون ثمة مجرم مجنون يعيث فساداً في مصايفنا؟

غمغم شاب في قميص ملون وبنطلون رمادي كان جالساً بالقرب من السيد جوست قائلاً: شيء مزعج! وجفل السيد جوست في جزع ولكنه تمالك نفسه وقال: آه، نعم، نعم.

لاحظ الشاب أن يدي الرجل الكهل الجالس بجانبه ترتعدان بحيث كان عاجزاً عن إمساك الصحيفة بهما، فقال له: إن الإنسان لا يستطيع أن يواجه مجرماً مجنوناً كهذا بالطرق المألوفة، وأعجب من هذا أن الواحد منهم لا تبدو عليه مظاهر الجنون في أغلب الأحوال.

- أعتقد هذا.

- ويظهر أن الحرب هي المسؤولة عن كثرة هذه الإصابات العقلية.

- أظن أنك... أنك على حق في هذا.

- إنني أبغض الحرب.

فالتفت السيد جوست إليه وقال: كلنا نكره الأوبئة والمرض والمجاعات، ولكنها مصائب لا بد من وقوعها.

فقال الشاب بلهجة تأكيد: ولكن الحروب مصائب من الممكن تلافيها.

وضحك السيد جوست، ضحك عالياً ولمدة طويلة. وجزع الشاب بعض الشيء وقال لنفسه: "إن الرجل مجنون"، ثم قال بصوت مسموع: أنا آسف يا سيدي، أعتقد أنك قد اشتركت في الحرب الأخيرة.

- نعم، وقد أصابتني في عقلي. إن عقلي لم يعد كما كان أبداً. إن الصداع يلازمني دائماً بشكل لا يحتمل.

- أوه، أنا آسف لهذا.

- وفي بعض الأحيان أكاد لا أعرف ما أفعله من فرط الألم.

فقال الشاب وهو ينهض مسرعاً: أحقاً؟ آه، يجب أن أمضي الآن فإنني على موعد.

وبقي السيد جوست في مكانه. وأخذ الناس يسيرون أمامه جيئة وذهاباً، وكان معظمهم يتحدثون عن الجريمة.

طوى السيد جوست صحيفته ودسها في جيبه ونهض في طريق العودة إلى المدينة، ورأى في طريقه فتيات كثيرات جميلات وضاحكات يلاطفن بالنظرات والابتسامات الشبان والرجال الذين يمرون بهن في الطريق، ولكن لم تفكر واحدة منهن في أن تلقي مجرد نظرة واحدة على السيد جوست.

* * *

الفصل التاسع

بينما كانت الصحف تمعن في الإثارة عن المجرم المجهول وتحذر الناس منه وتكتب بالخط العريض: «إنه قد يكون بجانبك الآن» كان بوارو من جانبه قد قرر أن يعقد اجتماعاً مع أقرب الناس إلى الضحايا الثلاث ليتحدث إليهم وليحاول أن يعتصر منهم كل ما يمكن أن يكون مختزناً في عقولهم. كان الذين أرسل إليهم يدعوهم إلى الحضور هم: ماري دراور ابنة أخت السيدة آسكر، وميجان برنارد أخت بيتي برنارد، ودونالد فريزر، وتورا جراي، وفرانكلين جيركن.

في اليوم المحدد للاجتماع وصل السيد جيركن أولاً قبل الموعد بنصف ساعة، بناء على رغبة بوارو، وقد قال بعد أن تبادلنا معه التحية واستقر في مجلسه: أنا غير مطمئن إلى كفاءة المفتش كروم يا سيد بوارو. أعتقد أن هذه الجرائم تحتاج إلى عبقرية بوليسية خاصة، ولولا المشاغل الكثيرة التي ينبغي أن أقوم بها بعد وفاة أخي لخصصت وقتاً أطول لكي أضع نفسي تحت أمركم ولكي أتعاون معكم على منع وقوع الجريمة الرابعة.

- إذن أنت ترى أن المجرم سيستمر في ارتكاب جرائمه؟

- حسب ترتيب الحروف الهجائية، ألا ترى أنت هذا؟

- بكل تأكيد.

- إذن يجب أن ننظم أنفسنا لمقاومته.

- ألديك اقتراح بهذا الشأن؟

- ما دمنا نحن أقارب المجني عليهم سنجتمع الليلة هنا، فلماذا لا نكوّن فيما بين أنفسنا «فرقة خاصة» تعاون رجال المباحث في الإيقاع بالمجرم الرهيب؟

- فكرة جيدة.

- يسرني أنك موافق عليها، ولا شك أننا بتعاوننا معاً قد نعثر على الرجل الغريب الذي كان يحوم حول مسرح كل جريمة قبل ارتكابها.

- هل تقترح أن تنضم الآنسة جراي إلى هذه الفرقة رغم أنها غير قريبة لأحد من المجني عليهم؟

فاضطرم وجه جيركن وقال: أعتقد أنها ستعاوننا كثيراً، لأنها عملت مع أخي سنتين وهي تعرف المناطق المجاورة لمسرح الجريمة الأخيرة معرفة تامة، كما تعرف معظم المقيمين فيها بصفة دائمة، أما أنا فقد كنت غائباً عن البلاد فترة طويلة تبلغ نحو عام ونصف عام.

قال بوارو بعطف: كنت في الشرق، في الصين، أليس كذلك؟

- نعم، كنت أشتري لأخي مجموعات التحف الخزفية

الثمينة التي تعرض في الأسواق العالمية، لا سيما في الصين نفسها.

- حسناً يا سيد جيركن، لا شك أنت كنت ذا فائدة كبيرة لأخيك الراحل.

بعد نصف ساعة كنا جميعاً نجلس حول مائدة الاجتماع، وكانت الفتيات الثلاث يختلفن من ناحية المظهر والشكل اختلافاً كبيراً، فتورا جراي صارخة الجمال ناصعة البياض، وميجان برنارد خمرية ذات شعر أسود بوجهها الجامد التعبير الشبيه بوجوه الهنود الحمر، وماري دراور بثوبها الأسود البسيط ووجهها الذي ينم عن البراءة والذكاء. أما الرجلان فكان فرانكلين جيركن بجسمه الكبير ووجهه الملوح ولباقته في الحديث يختلف كثيراً عن دونالد فريزر الهادئ الرزين الخجول.

بدأ بوارو الحديث قائلاً: أيها السادة والآنسات، أنتم تعرفون الغرض من اجتماعنا هنا، فبرغم أن رجال الشرطة لا يألون جهداً في أداء واجبهم للقبض على ذلك المجرم المجهول، إلاّ أنني أعتقد أن اتحادنا نحن أصحاب الشأن في هذه الجرائم قد يؤدي إلى كشف بعض هذا الغموض الذي يكتنف هذه الجرائم. نحن الآن أمام ثلاث جرائم راح ضحيتها سيدة عجوز وفتاة في ريعان الصبا ورجل كهل، لا يربط بينهم جميعاً إلاّ أن الجاني عليهم رجل واحد، وهذا يعني أن هذا الشخص الواحد كان موجوداً في أماكن الجرائم الثلاث، وليس من شك أيضاً في أن هذا الرجل (وقد يكون امرأة) على جانب كبير من الدهاء رغم اختبال عقله، وذلك لأنه استطاع

حتى الآن أن يفلت من أيدينا وألا يترك وراءه أثراً يقودنا إليه. صمت بوارو برهة أخرى قبل أن يستطرد قائلاً: إلاّ أن هناك معالم يمكن أن تحدد شخصية ذلك المجرم المجهول ويمكن أن توضح بعض الغموض الذي يكتنف الموقف. فمثلاً هو لم يذهب إلى بكسهيل في منتصف الليل ليجد أمامه فتاة يبدأ اسمها بحرف الباء على الشاطئ جاهزة للقتل...

وهنا قال دونالد فريزر بصوت ينم عن الألم النفسي العميق: هل يستلزم الأمر أن ندخل في هذه التفصيلات؟

قال بوارو ملتفتاً إليه: من الضروري أن نناقش كل صغيرة وكبيرة في هذه الجرائم، فالموقف لا يحتمل المجاملة أو مراعاة العواطف الخاصة. كنت أقول إن المصادفة وحدها لم تكن المسؤولة عن التقاء المجرم المجهول بالآنسة بيتي برنارد، لا بد أنه كان هناك نوع من التمهيد والاختيار، أي لا بد أنه قام بعملية استطلاعية لمسرح الجريمة. كان عليه أولاً أن يتأكد من بعض الحقائق، وكان عليه أن يحدد أفضل وقت يرتكب فيه جريمة أندوفر، وأن يعرف خير مكان يرتكب فيه جريمة بكسهيل، وأن يلم بعادات السير مايكل جيركن. لهذا أعتقد أنكم في مجموعكم تعرفون أشياء في قرارة أنفسكم دون أن تدركوا أنكم تعرفونها.

وحين ارتسمت أمارات الدهشة وعدم الفهم على وجوهنا جميعاً ابتسم بوارو وقال: إن العقل قد يختزن معلومات غامضة لا تظهر إلاّ بالحديث والمناقشة، وإذا كان موضوع المناقشة محدداً فربما كان في ذهن كل منكم جزء معين بشأن هذا

الموضوع، والحديث وحده هو الذي يجمع هذه الأجزاء لكي تتضح جميعاً في صورة واحدة.

وهنا تمتمت ميجان برنارد قائلة: كلا.

فلما نظر بوارو إليها متسائلاً أردفت قائلة بصوت ينم على اليأس: مجرد كلام نظري لا يعني شيئاً.

- إن الكلام يا آنسة هو الثوب الذي يبرز الأفكار.

قالت ماري دراور: أعتقد يا آنسة برنارد أن السيد بوارو على حق، فليس كالحديث المتبادل بين عدد من الأشخاص في موضوع واحد محكاً لإبراز آراء وصور ذهنية وذكريات كانت مختزنة في أعماق الذهن البشري.

قال جيركن: وأنا أوافق على هذا الرأي.

- ما رأيك يا سيد فريزر؟

- أنا أرتاب في جدوى هذه الطريقة.

- وأنت يا آنسة جراي؟

- أعتقد أن استعراض وجهات النظر بالحديث المتبادل عن موضوع معين لا بد أن يأتي بجديد في هذا الموضوع.

وهنا قال بوارو: إذن أرجو من كل واحد منكم أن يعتصر ذاكراته بقدر ما يمكن أن يتذكر قبل وقوع كل جريمة، ولنبدأ بالسيد جيركن.

قال السيد جيركن وهو يجمع بيده ثنايا جبينه: ماذا فعلت

في صباح اليوم الذي قتل فيه أخي؟ آه، ذهبت للصيد في زورق شراعي، وقد اصطدت ثماني سمكات كبيرة من نوع الماكريل. كان الجو صحواً وعدت إلى البيت في موعد الغداء، وأذكر أن الحساء الأيرلندي كان بين أصناف الطعام. ومن ثم نمت، ثم استيقظت وشربت الشاي وكتبت بعض الرسائل، ولكن فاتني وضعها في الصندوق بالموعد المناسب فركبت السيارة إلى بلدة بايتون لأرسلها، وعدت في موعد العشاء. وإنني لأشعر بالخجل حين أقول إنني قرأت للمرة الثانية كتاب «مغامرات نسبيت» الذي كنت مشغوفاً به منذ عهد التلمذة، ثم رن جرس التليفون...

فقال بوارو مقاطعاً: لا داعي لأن تذكر ما حدث بعد هذا لأنه لا يهم، وإنما المهم هو أن تذكر هل رأيت أحداً وأنت في طريقك إلى الصيد صباحاً؟

- كثيراً من الناس.

- هل يمكنك أن تتذكر شيئاً عنهم أو عن بعضهم؟

- لا شيء الآن.

- هل أنت متأكد من هذا؟

- دعني أتذكر. آه، أذكر أنني رأيت سيدة بدينة لفتت نظري بثوبها الأصفر المخطط. ورأيت شابين يلاعبان كلباً صغيراً على الشاطئ، وفتاة ذهبية الشعر كانت تضحك عالياً وهي تسبح... عجباً! إن بعض الذكريات تطفو فجأة كأنها الصور المتحركة.

- حسناً جداً. وبعد ذلك، ألم ترَ شيئاً أمام البيت أو في

الحديقة أو عندما خرجت لإرسال رسائلك؟

- رأيت في الحديقة البستاني يروي الشجر، وكدت أصطدم بصبي يركب دراجة أثناء ذهابي إلى بايتون، وسمعت امرأة تتشاجر بصوت مرتفع مع صديق لها... هذا كل ما أتذكر.

التفت بوارو إلى الآنسة جراي وقال لها: وأنت يا آنسة؟

فقالت بصوتها الواضح الرزين: فرغت من مراسلات السير مايكل في الصباح، وتحدثت مع مديرة البيت عن البرنامج اليومي وكتبت بعض الرسائل وانشغلت بعد الظهر ببعض أشغال الإبرة. والواقع أنه من العسير أن أذكر كل شيء، فقد كان اليوم من الأيام الرتيبة العادية، وأخيراً أويت إلى فراشي في ساعة مبكرة.

- وأنت يا آنسة برنارد، ألا يمكن أن تتذكري ماذا حدث في آخر مرة رأيت فيها أختك؟

- رأيتها قبل وفاتها بأسبوعين، وكنت قد عدت إلى البيت لأقضي نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، وكان الجو لطيفاً فذهبنا إلى مصيف هيستنغزز حيث سبحنا في بحيرته المشهورة.

- وعن أي شيء كان حديثكما معظم الوقت؟

- عنفتها كثيراً على ميلها إلى اللهو والعبث بلا تحفظ.

- وماذا أيضاً؟ عن أي شيء كان حديثها هي؟

- تحدثت عن ضيق ذات يدها وعن قبعة جديدة وفساتين للصيف وعن دونالد قليلاً، وقالت أيضاً إنها لا تحب زميلتها في العمل ميللي هيجلي. وضحكنا كثيراً على تصرفات ماريون مديرة المقهى، ثم لا أتذكر أكثر من هذا.

- ألم تذكر لك الآنسة برنارد أي شيء عن رجل ما كانت تنوي أن تقابله؟

فقالت ميجان بصوت جاف: ما كانت لتجرؤ أن تقول لي شيئاً من هذا القبيل.

واستدار بوارو إلى دونالد فريزر بشعره الأحمر وقال: سيد فريزر، عندما ذهبت لانتظار بيتي حتى تخرج من المقهى، هل شاهدت أحداً لفت نظرك بصفة خاصة؟

- لا، كان المصطافون كثيرين.

- ألم يلفت نظرك شخص معين منهم؟ أريد أن تعتصر ذهنك.

فقال الشاب بعناد: لم أرَ غير أشخاص عاديين، لم يكن بينهم واحد يلفت النظر.

- وأنت يا ماري دراور، أعتقد أن خالتك كانت تراسلك؟

- أجل يا سيدي.

- متى أرسلت إليك آخر رسالة؟

ففكرت ماري برهة قبل أن تجيب قائلة: قبل وفاتها بيومين.

- وماذا قالت فيها؟

- قالت إن الشيطان العجوز (تعني زوجها) حاول أن يبتز منها مبلغاً من المال زيادة عن المبلغ المتفق عليه ولكنها أفزعته وجعلته يهرب من وجهها، وأنها كانت تتوقع حضوري إليها يوم الأربعاء وهو يوم عطلتي الأسبوعية لنذهب إلى السينما، وكان ذلك يوم عيد ميلادي أيضاً يا سيدي.

وطفرت الدموع في عيني ماري ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها ثم قالت: معذرة يا سيدي، لقد غلبني الحزن على أمري، وإن بعض الذكريات...

فقال جيركن: أدرك شعورك يا آنسة دراور، فإن بعض الذكريات البسيطة قد يكون لها أكبر الأثر في النفس. فمثلاً أنا لا أنسى ما حييت منظر سيدة صدمتها سيارة كبيرة فقتلتها، وكانت جثتها ملقاة وبجانبها حذاء جديد تناثر من صندوقه. لقد خيل إليّ أن الحذاء يرقد في حزن وأسى بجوار السيدة التي ماتت قبل أن ترتديه!

وهنا هتفت ميجان قائلة بشيء من الحماس: هذه هي الحقيقة، نعم، هذا ما يحدث حقاً. لقد حدث نفس الشيء لأختي بيتي، ذلك أن أمي كانت قد اشترت جوربين لتقدمهما إليها هدية، اشترتهما في نفس يوم مصرعها. وقد رأيت أمي بعد ذلك وهي تمسك الجوربين وتبكي بحرارة وتقول: "اشتريت هذين لبتي، اشتريت هذين لبتي... ولكنها لم ترهما".

تململ دونالد فريزر في مقعده وبادرت تورا جراي إلى تغيير الحديث قائلة: ألا تفكر في وضع خطة للمستقبل؟

فقال فرانكلين جيركن وقد استعاد حالته الطبيعية: طبعاً، طبعاً، فعندما تصل الرسالة الرابعة يجب أن نوحد جهودنا. وإلى أن يحدث هذا أرجو أن يحاول كل منا أن يستعيد في ذهنه كل الذكريات عن حياته قبل وقوع كل جريمة مباشرة، وما رأي السيد بوارو أخيراً؟

- لديّ بعض المقترحات.

فأسرع فرانكلين جيركن وتناول من جيبه مفكرة وقلماً وقال: عظيم جداً، اذكرها لنا بالترتيب.

- أعتقد أن الجرسونة ميللي هيجلي ربما تعرف شيئاً قد يفيدنا في هذا الموضوع.

فقال جيركن وهو يكتب: (١) ميللي هيجلي.

- أقترح طريقتين لاستدراجها إلى الحديث، إما أن تثيرها الآنسة ميجان حتى تدفعها إلى الإفضاء بكل ما تعرفه عن بيتي، وعندئذٍ قد نعرف الرجل المجهول الذي قيل إنها تنزهت معه مرتين، وإما أن يتقرب السيد فريزر إليها ويتظاهر بمغازلتها ويستدرجها للحديث عن بيتي في هذا الشأن.

وهنا قال دونالد فريزر: هل هذا إجراء ضروري؟

- لا، ليس ضرورياً ولكنه مجرد محاولة.

وعندئذٍ أسرع فرانكلين جيركن يقول: هل أجرب أنا هذه الطريقة مع ميللي هيجلي يا سيد بوارو؟ فإن لي وسائلي الخاصة في الحديث الجذاب مع الفتيات.

قالت تورا جراي بحدة: وهل لديك وقت فراغ كافٍ للقيام بمثل هذه المحاولات؟

فتلاشت الابتسامة من وجه فرانكلين وهو يقول متراجعاً: آه، صدقت يا تورا. إن أعمالي كثيرة في هذه الأيام.

قال بوارو: أعتقد أنه لا يوجد شيء كثير يحتاج إلى اهتمام خاص في البيت يا سيد جيركن، وربما كان في مقدور الآنسة جراي أن تحل محلك في القيام...

فقاطعته تورا جراي بقولها: ولكني تركت عملي في قصر السير مايكل جيركن.

- آه، لم أعرف هذا.

قال فرانكلين جيركن: من الطبيعي أن تفضل الآنسة جراي البحث عن عمل مناسب في لندن بعد وفاة أخي.

فتنقل بوارو بنظراته الحادة بين الاثنين ثم قال فجأة: كيف حال الليدي جيركن؟

اضطرم وجه تورا جراي بينما قال فرانكلين جيركن: في أسوأ حال. وبهذه المناسبة، هل يمكنك يا سيد بوارو أن تذهب لمقابلتها؟ لقد أعربت عن رغبتها في رؤيتك.

- بكل تأكيد يا سيد جيركن. هل يمكن أن أقوم بزيارتها بعد غد؟

- حسناً، سوف أخبر الممرضة بذلك حتى تجعلها في حالة تستطيع معها أن تقابلك.

استدار بوارو إلى ماري دراور وقال: وأنت يا آنسة دراور، أعتقد أن في مقدورك أن تقدمي لنا خدمة جليلة إذا ذهبت وتحدثت مع بعض الأطفال من جيران خالتك في أندوفر.

فقالت ماري بدهشة: الأطفال؟

- نعم، إن الأطفال عادة ينفرون من الغرباء ولكنهم لن ينفروا من الحديث معك، ومن المحتمل جداً أن يكون أحدهم قد رأى شخصاً غريباً عن البلدة وهو يدخل دكان خالتك أو يحوم حوله.

قال جيركن: وماذا عني وعن الآنسة جراي، هذا إذا لم أذهب إلى بكسهيل؟

ولما تردد بوارو برهة قال جيركن مستطرداً: ما رأيك لو أنني نشرت إعلاناً في الصحف موجهاً إلى المجرم المجهول أقول له فيه إن هيركيول بوارو يعرف الكثير عنه وإن في مقدوري إنقاذه إذا دفع مئة جنيه، وليكن نص الإعلان هكذا: "رسالة عاجلة إلى «أ ب ج»، إن «هـ ب» وراءك، مئة جنيه لسكوتي، اتصل بـ «ل م ن»". إنها فكرة بدائية ولكنها قد تفيد.

- هذا ممكن جداً.

- هذا الإعلان قد يغريه بإطلاق النار عليّ.

فقالت تورا جراي بحدة: إنها فكرة خطرة وحمقاء.

- ما رأيك يا سيد بوارو؟

فابتسم بوارو وقال: أعتقد أنه لا ضرر منها، ومعذرة يا سيد جيركن فإنه يخيّل لي أنك ما زلت طفلاً في أعماق نفسك.

فاضطرم وجه فرانكلين جيركن وقال وهو يكتب في مفكرته: حسناً، إن البرنامج الآن هو:

(أ) الآنسة برنارد مع الآنسة هيجلي.
(ب) السيد فريزر مع الآنسة هيجلي.
(ج) الآنسة دراور مع أطفال أندوفر.
(د) الإعلان.

ورغم أن هذا البرنامج كان في رأيي لن يؤدي إلى شيء مهم، إلاّ أنني رأيت أنه لن يؤدي إلى ضرر في الوقت نفسه، وبعد لحظات قليلة انفض الاجتماع.

* * *

الفصل العاشر

كان طابع الحزن واضحاً على قصر السير مايكل جيركن عندما ذهبنا في الموعد المحدد لمقابلة الليدي جيركن. لعل جو سبتمبر المقبض كان له أثره في شعورنا بذلك الطابع الحزين المخيم على القصر. وكانت معظم غرفه مغلقة والستائر مسدلة على نوافذها، كما أن الغرفة التي جلسنا ننتظر فيها كانت رطبة كئيبة. أقبلت ممرضة محترفة ينم مظهرها عن الكفاءة وقالت: السيد بوارو؟ أنا الممرضة كابستيك وقد تلقيت رسالتك التي ذكرت فيها موعد حضورك لزيارة الليدي جيركن.

- أرجو أن تكون في حالة صحية تسمح بمثل هذه الزيارة.

- الواقع أن حالتها الصحية أحسن قليلاً.

- إنني سعيد إذ أسمع هذا.

- الواقع أن الدكتور ليجون قد اتبع معها طريقة جديدة للعلاج، ورغم أن التحسن بطيء إلاّ أنه واضح.

- ولكن يقال إنها لن تسترد صحتها على أية حال؟

فقالت الممرضة وقد صدمها هذا الحديث الصريح: إن الإنسان مهما بلغت براعته في الشؤون الطبية لا يستطيع أن يصدر حكماً جازماً كهذا.

- ولكنني أعتقد أن وفاة زوجها كانت صدمة عنيفة لها.

- ربما لا يكون هذا صحيحاً، فأعتقد أن الصدمة ليست بالقوة التي نظنها.

- اسمحي لي أن أوجه إليك هذا السؤال يا آنسة كابستيك. هل كانت الليدي جيركن شديدة التعلق بزوجها؟

- أوه، نعم. لقد كان الاثنان زوجين سعيدين، ولا عجب أن شعر المسكين السير مايكل جيركن بأشد الجزع عليها حين علم حقيقة مرضها، ويمكن القول إن أحزانه بسببها كانت بالغة جداً في أول الأمر.

- في أول الأمر؟ وبعد ذلك؟

- لا تنسَ أن الإنسان يتعود على كل شيء حتى على المرض المزمن، وقد اعتاد السير جيركن على مرض زوجته فخفّت أحزانه بعد الصدمة الأولى. ثم لا تنسَ هوايته في جمع الخزف الثمين، وليس هناك أفضل من هواية يحبها الإنسان عزاء له في مثل هذه الكوارث. لقد كانت تشغله كثيراً لا سيما عندما يذهب إلى المزادات الكبيرة في لندن أو عندما يقضي الساعات الطوال مع الآنسة جراي في تصنيف المجموعات وترتيبها.

- آه، الآنسة جراي؟ لقد تركت الخدمة هنا كما علمت.

- نعم، وإنه لأمر يدعو للأسف. ولكن للزوجة عذرها

(لا سيما إذا كانت مريضة) حين يمتلئ رأسها بالهواجس والشكوك، وإنني لشديدة الإعجاب بالآنسة جراي عندما رفضت أن تناقش الليدي جيركن فاعتزلت الخدمة فوراً.

- إذن فالليدي جيركن هي التي أمرت بطردها؟

- طبعاً.

- هل كانت تكرهها دائماً؟

- لا، لم تكن تكرهها في أول الأمر، بل على العكس كانت تميل إليها. حسناً، كفى ثرثرة من جانبي الآن، إن الليدي جيركن في انتظاركما.

صعدنا معها إلى غرفة بالطابق الأول، وكانت غرفة مضاءة لطيفة جيدة الأثاث، وقد رأينا فيها الليدي جيركن جالسة على مقعد وثير بالقرب من النافذة. وكان وجهها ينم على الألم والإرهاق كما كانت شاردة زائغة النظرات.

قالت لها الممرضة: هذا هو السيد بوارو الذي أردت أن يزورك.

فقالت السيدة في غموض وذهول: آه، نعم، نعم، السيد بوارو.

ولما صافحته قال وهو يقدمني: هذا صديقي الكابتن هيستنغز يا ليدي جيركن.

- كيف حالك يا كابتن هيستنغز؟ أنا سعيدة بزيارتكما.

جلسنا على مقعدين بالقرب منها، ولاح لي أنها قد

استغرقت فجأة في غيبوبة، ولكنها لم تلبث أن هزت رأسها كأنما تفيق من حلم ثم قالت: سوف نتحدث عن كار، اليس كذلك؟ عن مقتل كار! ثم تنهدت وهي تهز رأسها، كأنما تتحدث إلى شخص مجهول واستطردت تقول: من كان يظن أن نهايتنا ستكون هكذا، نهايته ستكون قبل نهايتي؟ ولكنها الدنيا!

ومرة أخرى عادت تقول وكأنما تحدث نفسها: لم أكن أصدق أبداً أنه سيموت في الستين. لقد كان يتمتع بصحة جيدة ومن يراه كان يحسبه في الأربعين من عمره، ولكن... وبعد برهة صمت أخرى طويلة قالت فجأة: نعم، أنا شاكرة لكما تفضلكما بالحضور. لقد طلبت من فرانكلين أن أراك يا سيد بوارو ووعدني بأن يبلغك رغبتي. كل ما أرجوه ألا يرتكب حماقة من هذه الحماقات التي يقدم عليها الرجل فيما بعد، لا سيما في مسألة الزواج. إنه رغم بلوغه الأربعين من العمر سهل الانقياد وأعتقد أن معظم الرجال هكذا أمام الفتيات الجميلات، إنه دائماً طفل رغم مرور الأعوام.

فقال بوارو: أعتقد أنه مندفع بطبيعته.

- أجل، أجل. إنه مندفع وعلى جانب كبير من الشهامة، لا سيما مع الفتيات، وأنا أعتبر أن هذه ليست شهامة وإنما هي حماقة، وهكذا كان كار أيضاً.

تلاشى صوتها قليلاً وعادت إلى الصمت، وبعد برهة تمتمت قائلة: إن المرض قاسٍ، لا سيما إذا كان مصحوباً بنوبات من الألم، فالمريض يعيش في قلق دائم لا يعرف متى

ستهاجمه النوبة التالية، وهل سيهاجمه الألم أو سيتوقف نهائياً. آه، معذرة.

- إنني أقدّر مشاعرك يا ليدي جيركن، والحياة مليئة بالمآسي.

- نعم، نعم، ولكن المرض يجعلني أذهل عما حولي في بعض الأحيان. عن أي شيء كنا نتحدث؟ آه، نعم...

- عن شيء يتعلق بوفاة زوجك.

- وفاة كار، مقتله. يا للمسكين! ويا للمجرم المسكين! لا شك أنه مجنون، ولا شك أن جنونه نشأ بسبب هذه الحياة المليئة بالسرعة والضجيج التي نعيش فيها هذه الأيام. إنها حياة لم تعد تطاق. أنا أشفق على المجانين، فلا شك أن عقولهم المضطربة تثير فيهم أغرب الانفعالات، ثم إن سجنهم في مكان منعزل أمر رهيب مزعج، ولكن ماذا يمكن للمجتمع أن يفعل غير هذا؟ لا سيما إذا بدؤوا يقتلون الأبرياء.

ثم التفتت نحو بوارو وسألته فجأة: ألم تقبضوا عليه بعد؟

- لا، لم نقبض عليه بعد.

- لا بد إذن أنه كان يتسكع بالقرب من القصر في ذلك اليوم.

- إننا في موسم الاصطياف يا ليدي جيركن، والغرباء عن البلدة يكثرون بطبيعة الحال.

- نعم، نعم، نسيت هذا. ولكنهم عادة يبقون عند الشواطئ ولا يصعدون إلى المنزل.

- لم يقترب من المنزل أحد الغرباء في ذلك اليوم يا ليدي جيركن.

فقالت السيدة بحماس مفاجئ: من قال هذا؟

فأجاب بوارو مدهوشاً: الخدم والآنسة جراي.

- هذه الفتاة كاذبة.

حدقت بالليدي جيركن مدهوشاً بدوري بينما استطردت هي تقول: أنا لا أحبها ولم أحبها أبداً، وكان كار شديد الإعجاب بها وبكفاءتها، كان يقول دائماً إنها فتاة يتيمة وحيدة في الحياة. وما عيب اليتيم؟ إنه أحياناً يكون رحمة وبركة عندما يكون للأبناء والد سكير عربيد فاسد الأخلاق وأم بلهاء.

حاولت الممرضة أن تهدئ ثائرتها ولكن الليدي جيركن استطردت: لقد أمرت بفصلها من الخدمة بعد وفاة كار مباشرة، والعجيب أن فرانكلين حاول بكل وقاحة أن يبقيها ويقنعني أنها قد تكون ذات فائدة لي. إنه أحمق مندفع! إنه طفل في قرارة نفسه، وأنا لا أريد أن يختلط بفتاة ذات أهداف بعيدة مثلها. لقد أمرت بإعطائها راتب ثلاثة أشهر وخروجها من البيت فوراً، وقد ذهبت وهي تتظاهر باللطف والدعة. يا لها من فتاة داهية!

مرة أخرى بذلت الممرضة جهدها لتهدئة الليدي جيركن، فلما هدأت قال بوارو: لماذا قلت إنها كاذبة يا ليدي جيركن؟

- لأن هذه هي الحقيقة، ألم تقل لكم إنه لم يقترب أحد الغرباء من القصر في ذلك اليوم؟

- بلى.

- حسناً جداً، لقد رأيتها بنفسي، بعينيّ هاتين من هذه النافذة، تتحدث مع رجل غريب تماماً عن الناحية أمام مدخل البيت.

- متى كان هذا؟

- في صباح اليوم الذي قُتل فيه زوجي، وكانت الساعة نحو الحادية عشرة صباحاً.

- وماذا كان شكل الرجل؟

- كان رجلاً عادياً لا يميزه عن غيره شيء.

- هل كان سيداً أو بائعاً؟

- لا، لم يكن بائعاً ولكنه كان رجلاً رقيق الحال كما بدا من ملابسه.

واختلج وجهها بألم مفاجئ، فقالت الممرضة لنا: أرجو أن تتركاها لتستريح الآن.

وقطعنا الرجاء وخرجنا. وقلت لبوارو ونحن في طريق العودة إلى لندن: هذه حكاية غريبة جداً... أعني حكاية الآنسة جراي والرجل الغريب.

- أرأيت يا هيستنغز؟ إن كل شيء يثبت ما كنت أقوله لك

كثيراً، وهو إنه لا بد أن يحدث أمر ما ينير السبيل أمام العدالة.

- لماذا كذبت الفتاة وقالت إنها لم ترَ أحد الغرباء في ذلك اليوم؟

- أبسط ما يمكن أن تفعله في هذا الشأن هو أن نسألها.

- لنفرض أنها كذبت مرة أخرى.

- في هذه الحالة ستزداد الأمور وضوحاً.

- لا أصدق يا بوارو أن يكون لفتاة كهذه علاقة برجل مجنون.

- تماماً، وهذا هو رأيي أيضاً.

مرة أخرى راح بوارو يستعرض الجرائم الثلاث ويحاول عبثاً أن يجد بينها رابطة أخرى تفسر ارتكاب شخص واحد لها. وأخيراً وصلنا إلى مسكنه في عمارات وايت هافن، وقبل أن ندخل المسكن قيل لنا إن فيه رجلاً ينتظرنا بداخله. توقعت أن يكون الضيف المنتظر فرانكلين جيركن أو المفتش جاب، ولكن لشدة ما كانت دهشتي حين رأيته الشاب دونالد فريزر الذي نهض لاستقبالنا في شيء من الارتباك.

لم يضغط بوارو عليه لكي يدلي بالأقوال التي جاء من أجلها وإنما دعاه إلى مشاركتنا في وجبة طعام خفيفة، وبعد ذلك قال له: لقد جئت من بكسهيل يا سيد فريزر، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل نجحت مع ميللي هيجلي؟

- ميللي هيجلي؟ إنني في الواقع... إنني لم أرها.

ثم انفجر قائلاً: بل إنني في الحقيقة لا أعرف لماذا جئت إلى هنا!

فقال بوارو: أنا أعرف.

- كيف يمكنك أن تعرف؟

- لقد جئت لأن لديك أقوالاً لا بد أن تدلي بها لأحد، وأنا الشخص الذي ينبغي أن تدلي بها إليه.

- أتعتقد هذا؟

- تماماً.

وصمت الشاب برهة قبل أن يقول في خجل: أتؤمن بالأحلام يا سيد بوارو؟

كان هذا آخر ما توقعت أن أسمعه، ولكن بوارو كما لاح لي لم يدهش وإنما قال بهدوء: نعم، هل رأيت حلماً؟

- أجل، وكان طبيعياً أن أحلم بها، ولكن ليس من الطبيعي أن يكون الحلم على هذا النحو الفظيع.

- أخبرني به.

- حلمت مراراً أنني على الشاطئ انتظر عودة بيتي من غيبتها، وكنت واثقاً في الحلم طبعاً أنها ستعود يوماً ما، وكان أشد ما يهمني أن أعيد إليها حزامها. يا إلهي!

- وبعد؟

- وتغير الحلم ليلة أمس، فرأيتها جالسة على الشاطئ، ولكنها لم تشعر بي وأنا أقترب منها. يا إلهي! لقد فاجأتها من الخلف ولففت الحزام حول عنقها و... وخنقتها به! وأخفى الشاب وجهه بين يديه وقال: ولما ماتت تبينت أنها لم تكن بيتي وإنما أختها ميجان.

ورفع الشاب رأسه وقال في ألم: فما معنى هذا يا سيد بوارو؟ أخبرني، ما معنى هذا؟

ولم أعرف بماذا أجاب بوارو لأنني سمعت في تلك اللحظة طرقات ساعي البريد على صندوق بوارو الخاص فاندفعت إلى الصندوق، وما كدت أتناول الرسالة التي وجدتها فيه حتى نسيت كل ما سمعت من دونالد فريزر وانطلقت عائداً أجري إلى بوارو وأنا أهتف قائلاً: لقد وصلت الرسالة الرابعة. فوثب واقفاً واختطف الرسالة وفتحها وقرأ فيها ما يلي بصوت مسموع:

لم تستطع أن تفعل شيئاً، يا لخيبتك!

ماذا تفعل أنت ورجال المباحث؟ حسناً، حسناً، أليست هذه متعة لطيفة. أين تكون الجريمة الرابعة؟ يا لك من مسكين يا بوارو! إنني حزين من أجلك، يجب أن تتحرك يا رجل فإن الطريق لا يزال طويلاً أمامنا. هل يكون مسرح الجريمة التالية بلدة كيبري؟ لا، لا، إن هذا الحرف لا يزال بعيداً، إذن ليكن موعدنا في بلدة دونكاستر في الحادي عشر من هذا الشهر، وداعاً.

* * *

الفصل الحادي عشر

لم يكن في مقدور بوارو أو رجال المباحث أن يفعلوا شيئاً قبل وصول الرسالة الرابعة إلاّ الانتظار، وكانت فترة هذا الانتظار مرهقة للأعصاب إلى حد مزعج. ولكن ما أن وصلت الرسالة الرابعة حتى انطلقت جميع القوى ككلاب الصيد لمطاردة الفريسة. لقد أسرع المفتش كروم بالقدوم من إدارة اسكتلانديارد إلى مسكن بوارو، وفيما هو يبحث الموضوع معه أقبل فرانكلين جيركن وميجان برنارد، وقال كروم لبوارو: سوف آخذ هذه الرسالة معي يا سيد بوارو، يمكنك أن تحتفظ بنسخة منها إذا شئت.

- لا، لا داعي لهذا.

سأل فرانكلين المفتش كروم قائلاً: ماذا تنوي أن تفعل يا سيد كروم؟

- إن اليوم الحادي عشر من الشهر يوافق يوم الأربعاء من الأسبوع التالي، وهي فترة كافية لتثير اهتمام الرأي العام وتجعل الجميع يتعاونون معنا لمطاردة هذا المجنون. ولا شك أن كل مخلوق يبدأ اسمه بالحرف «د» سيكون على حذر. كما

أننا سنملأ البلدة برجال المباحث في ملابس مدنية، وقد بدأنا فعلاً في اتخاذ هذه الخطوة.

قال فرانكلين جيركن: من السهل أن يعرف الإنسان أنك رجل لا تهوى الألعاب الرياضية يا سيدي المفتش.

- ماذا تعني يا سيد جيركن؟

لأنك لا تعرف أن يوم الأربعاء التالي هو يوم الحفلة الرياضية السنوية في دونكاستر وأن سباق الخيل المعروف باسم سانت ليجير سيجري في ذلك اليوم.

عندئذٍ قال المفتش في حيرة: آه، نعم، هذا حق.

- إن مجرمنا ليس بالرجل الأبله وإن كان مجنوناً.

خيم الصمت علينا برهة كنا خلالها نتصور بلدة دونكاستر وهي تزدحم بمجموع هواة الرياضة وسباق الخيل الوافدين من كل حدب وصوب. وقال جيركن أخيراً: أعتقد إن الجريمة ستتم في حلبة سباق الخيل، وربما أثناء انطلاق الجياد في مضمار السباق.

فنهض المفتش قائلاً: هذا من سوء الحظ. وتناول قبعته وانصرف، وسمعناه يتبادل الحديث في الردهة الخارجية مع شخصية نسائية، ولم تلبث تورا جراي أن أقبلت قائلة بأنفاس لاهثة: لقد أخبرني المفتش كروم أن رسالة أخرى قد وصلت.

فأجاب فرانكلين جيركن بينما كانت تورا تخلع معطف المطر: إنها بلدة دونكاستر هذه المرة وفي اليوم الحادي عشر

من هذا الشهر، أي في عيد سانت ليجير.

قال بوارو: لا يجب أن نفقد الأمل يا أبنائي، ولسوف نبذل جهودنا لنحول دون وقوع هذه الجريمة بأي ثمن. ومهما يكن ازدحام البلدة في ذلك اليوم بهواة الرياضة فإن الضجة التي ستثيرها الصحافة ستجعل كل شخص في تلك البلدة (لا سيما الذي يبدأ اسمه بحرف الدال) يشك في الواقف بجانبه. أنا واثق أن نهاية المجرم المجهول قد اقتربت.

تنهدت تورا جراي وقالت: لو أننا فقط نعرف عنه شيئاً، لو أننا نعرف فقط ما إذا كان طويلاً أو قصيراً، عجوزاً أو شاباً...

فجأة قال بوارو لها: بهذه المناسبة يا آنسة جراي، هل أنت واثقة تماماً من أنك لم تري شخصاً غريباً بالقرب من المنزل في يوم مقتل السير مايكل جيركن؟

- نعم، كل الثقة.

- عجباً. ولكن الليدي جيركن شاهدتك من نافذتها وأنت واقفة أمام مدخل القصر تتحدثين إلى رجل غريب.

- لا بد أن تكون الليدي جيركن واهمة. أوه، ولكن...

اضطرم وجه تورا جراي وقالت بسرعة: لقد تذكرت، تذكرت. يا لي من حمقاء! الواقع أنني نسيت هذا الرجل، ولكن أعتقد أنه ليس للأمر هذه الأهمية كلها، إنه مجرد مندوب لبيع الجوارب، رجل من المحاربين القدماء الذين يكتسبون رزقهم ببيع بعض منتجات الشركات، وكان قد اعترض سبيلي وأنا

في طريقي إلى مدخل القصر ولكنني اعتذرت له ولم أشترِ منه شيئاً. إنه رجل مسالم هادئ من النوع الذي لا يترك في النفس أي أثر.

كان بوارو في تلك اللحظة يضع رأسه بين يديه ويهتز إلى الأمام وإلى الخلف وهو يتمتم لنفسه: "جوارب، جوارب، جوارب، ولا شيء غير الجوارب! منذ ثلاثة أشهر سمعت هذه الكلمة وسمعتها منذ أيام، وهأنذا أسمعها الآن". انتصب في جلسته ورمقني بنظرة حادة وقال: أتتذكر يا هيستنغز عندما كنا في أندوفر عندما دخلنا الدكان وصعدنا إلى غرفة نوم السيدة آسكر الواقعة خلفه فرأينا على المقعد زوجاً من الجوارب الجديدة! وإني لأذكر الآن أنني قد اهتممت لسبب ما عندما حدثتِني يا آنسة برنارد عن والدتك التي اشترت زوجين من الجوارب لأختك بيتي وعن بكائها الحار لأن البنت ماتت قبل أن تراهما، وكان ذلك في نفس يوم الحادث.

توقف بوارو عن الحديث فجأة ثم راح يدور بعينيه في وجوهنا قبل أن يستطرد قائلاً: أترون؟ لقد تكرر هذا الأمر ثلاث مرات، فلا يمكن أن يكون مجرد مصادفة. والآن، أخبريني يا آنسة برنارد، هل اشترت والدتك الجوارب من متجر أم من بائع متجول؟

- من بائع متجول، وأتذكر حديثها عن أولئك المندوبين البؤساء الذين يدورون على المنازل لبيع منتجات بعض الشركات والمصانع.

هنا هتف فرانكلين جيركن قائلاً: ولكن ما هي العلاقة بين

بائع جوارب متجول وهذه الجرائم الرهيبة يا سيد بوارو؟

قال بوارو بحماس: سأقول لكم أيها الأصدقاء، إن الأمر لا يمكن أن يكون مصادفة. لقد وقعت ثلاث جرائم، وقبل وقوع كل جريمة كان ثمة رجل يبيع الجوارب في مسرحها، فما معنى هذا؟ معناه أنه كان يستكشف الميدان الذي سترتكب فيه الجريمة.

ثم استدار نحو تورا جراي وقال بسرعة: صفي لنا ذلك الرجل يا آنسة جراي.

ارتسمت الحيرة على وجه تورا جري وهي تقول: إنني... لا أدري تماماً. فوق الأربعين، يضع نظارة على عينيه، ويرتدي معطفاً قديماً.

- وماذا أيضاً يا آنسة جراي؟

- لا أذكر، كان متخفياً فلم أرَ الشيء الكثير من ملامحه. المهم أنه رجل من النوع الذي لا يترك في النفس أي أثر.

فأومأ بوارو برأسه وقال: صدقت يا آنسة، إن هذا الرجل هو القاتل فعلاً. إنه الشخصية الباهتة التي لا تثير انتباه أحد فأرادت أن تثبت وجودها بهذه الجرائم الرهيبة.

* * *

جلس السيد ألكسندر بوبابرت جوست في مكانه دون حركة. كان طعام الإفطار أمامه كاملاً بارداً ولم يلمسه، وعلى المائدة صحيفة مفتوحة كان السيد جوست مستغرقاً في قراءتها.

ثم نهض من مكانه فجأة وراح يذرع غرفته جيئة وذهاباً، ثم لم يلبث أن تهالك جالساً على مقعد وثير بجانب النافذة ووضع رأسه بين يديه وراح يكبت تأوهات الألم. لم يسمع صوت صرير الباب وهو يفتح ولا وقع أقدام السيدة ماربري صاحبة المسكن المفروش وهي تدخل ثم تقف وتقول: سيد جوست؟ ماذا بك؟ هل أنت مريض؟

رفع الرجل رأسه وقال: لا شيء يا سيدة ماربري، أنا فقط متوعك الصحة هذا الصباح.

ألقت السيدة ماربري نظرة على مائدة الإفطار ثم قالت: أنت لم تلمس طعام إفطارك، أهو الصداع مرة أخرى؟

- نعم، نعم، وشيء من الدوار.

- إنني آسفة من أجلك يا سيد جوست، هل ستخرج اليوم إلى عملك أيضاً؟

فوثب السيد جوست ناهضاً يقول: آه، نعم. عليّ أن أقوم بعمل مهم، مهم جداً.

لاحظت السيدة ماربري ارتعاد يديه من فرط الانفعال فقالت: وهل... وهل ستمضي بعيداً اليوم؟

- لا، إنني ذاهب... ذاهب إلى... إلى بلدة شلتام.

التقطت السيدة ماربري الصحيفة الواقعة على الأرض لتعيدها إلى المائدة، فلما وقعت نظراتها على العناوين الضخمة في الصفحة الأولى قالت بصوت ينم عن الخوف: ليس في

الصحف اليوم حديث إلا عن الجرائم الرهيبة. أشعر بالارتعاد كلما قرأت عنها وأتذكر جرائم السفاح جاك.

تحركت شفتا السيد جوست ولكن لم يصدر عنهما صوت، فاستطردت السيدة تقول: دونكاستر! إنها البلدة التي قال إنه سيرتكب فيها جريمته الرابعة غداً. أليس هذا شيئاً رهيباً؟ لو أنني كنت أقيم في هذه البلدة واسمي يبدأ بالحرف «د» لهربت منها إلى أقصى مكان، ما رأيك يا سيد جوست؟

- لا أدري يا سيدة ماربري، لا أدري!

- يقال إن آلافاً من رجال الشرطة سيندسون بين المحتفلين بعيد سانت ليجير غداً للبحث عن ذلك المجرم المجهول. أوه، إن حالتك تسوء يا سيد جوست، ومن رأيي ألا تخرج اليوم.

فشد السيد جوست قامته وقال: لا بد من الخروج اليوم لأنني على مواعيد كثيرة، ولا مندوحة للإنسان من أن يحافظ على مواعيده إذا أراد أن يثق الناس فيه. ومن طبيعتي أن أقوم بكل ما أتخذه من قرارات لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن النجاح في ميدان العمل.

- ولكن إذا شعر الإنسان بالمرض؟

- انا لست مريضاً، مجرد صداع بسيط وبعض الدوار لأنني لم أنم جيداً.

ولم يسع السيدة ماربري إلاّ أن تهز كتفيها وتحمل صحفة الطعام وتغادر الغرفة، بينما كان السيد جوست يضع في حقيبة سفر صغيرة بيجامته وأدوات حلاقة ذقنه وعشر علب مسطحة

من الكرتون. وبعد أن ألقى نظرة على دليل السكك الحديدية الموضوع على المائدة غادر الغرفة والحقيبة في يده. وفي الصالة وضع قبعته على رأسه وارتدى معطفه وهو يتنهد بعمق لفت إليه انتباه فتاة كانت خارجة من غرفة بالجانب الآخر، فنظرت إليه بقلق وقالت: هل تتألم من شيء يا سيد جوست؟

- لا شيء يا ليلي.

- لقد كنت تتنهد بشدة.

- لا داعي لأن تقلقي يا ليلي، إنني بخير. طاب يومك.

- طاب يومك يا سيد جوست. إلى أين أنت ذاهب هذه المرة؟ إلى الشاطئ ثانية؟

- لا، لا، بل إلى شلتام.

- إنه مصيف لطيف فعلاً ولكن ليس أجمل من توركاي، سوف أمضي الصيف القادم فيه. وبهذه المناسبة، لقد كنت في توركاي عندما وقع حادث قتل السير مايكل، أي كنت قريباً من مسرح الجريمة.

- لا، لا، إن توركاي تبعد عن جيرستون نحو ستة أو سبعة أميال.

- إنها مسافة قصيرة جداً، ومن يدري فلعلك رأيت القاتل دون أن تعرفه. آه، ماذا بك يا سيد جوست، هل أنت مريض؟

- لا، أنا بخير، شكراً يا سيدة ماربري وطاب يومك.

وقالت ليلي ماربري لنفسها وهي تشيعه بنظراتها: إنه رجل مسكين، يخيل إليّ أن عقله ليس في حالة طبيعية.

* * *

قال المفتش كروم لمساعده: اكتب لي قائمة بأسماء جميع منتجي الجوارب النسائية، ثم اتصل بمديريها واعرف منهم أسماء جميع مندوبي البيع الذين يتعاملون معهم، وأعني بهم أولئك المندوبين المتجولين.

- هذا كله يتعلق بجرائم «أ ب ج»؟

قال المفتش على مضض: أجل، إنها فكرة بوارو وربما لا تنتهي إلى شيء إلاّ أن علينا ألا نهمل أية فكرة معقولة.

* * *

قال الشاب توم هارنيجيان لخطيبته ليلي ماربري: لقد رأيت في هذا الصباح نزيلكم العجوز العجيب.

- من تعني؟ السيد جوست؟

- رأيته في بلدة أوستن كالدجاجة الضالة كالمعتاد. أعتقد أن هذا المسكين نصف مجنون ولا بد أن يكون معه أحد يرعاه في الخارج، لقد سقطت من يده الصحيفة أولاً ثم سقطت منه تذكرة السفر دون أن يشعر، فلما أعدتهما إليه شكرني في اضطراب، ولكنني أعتقد أنه لم يتعرف عليّ.

- إنه لم يرك إلاّ نادراً يا توم، ولكن ماذا كنت تفعل في أوستن؟

- كنت في طريقي منها إلى شلتام.

- وهكذا كان أيضاً السيد جوست.

- لا، كانت تذكرة سفره تدل على أنه ذاهب إلى دونكاستر.

- بل شلتام.

- بل دونكاستر. لقد قرأت اسم هذه البلدة بوضوح على التذكرة.

- ولكنه قال لي ولأمي إنه ذاهب إلى شلتام.

- ربما سمعتما الاسم خطأ، ولعله ذهب للفرجة على سباق الخيل.

- ولكن دونكاستر هي البلدة التي ستحدث فيها الجريمة الرابعة غداً!

- لا تجزعي عليه، إن اسمه لا يبدأ بحرف الدال.

- والعجيب أنه كان في توركاي بالقرب من جيرستون في المرة السابقة.

- إنها مصادفة عجيبة، أليس كذلك؟

كان الاثنان يتمشيان على طريق نهر التايمز عندما أردف توم هارنيجيان قائلاً وهو يضحك: لعله كان أيضاً في بلدة بكسهيل وقت وقوع الجريمة الثانية.

فضمت ليلي ما بين حاجبيها مفكرة ثم قالت: كان غائباً

عن غرفته فعلاً، وأنا أذكر ذلك لأنه كان قد نسي ثوب السباحة لأن أمي كانت ترتقه له، وقد قالت لي في اليوم التالي: "لقد نسي السيد جوست ثوب السباحة الذي كان ينوي أن يأخذه معه، هل سمعت بالفتاة التي وجدت مخنوقة على شاطئ البحر في بكسهيل أمس؟".

هنا ابتسم توم هارنيجيان وقال: ما دام كان ينوي أن يأخذ معه ثوب السباحة فلا شك أنه ذهب إلى أحد المصايف يومذاك، ما رأيك فيما لو كان نزيلكم العجوز هذا هو القاتل المجهول؟

فضحكت ليلي وقالت: السيد جوست المسكين؟ إنه لا يستطيع أن يؤذي ذبابة!

* * *

الفصل الثاني عشر

دونكاستر! أعتقد أنني سوف أتذكر اليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر مدى الحياة. الواقع أنني كلما سمعت عن عيد القديس ليجير تذكرت فوراً تلك الأحداث الرهيبة المتوالية التي وقعت في ذلك اليوم.

لقد كنا هناك في ذلك اليوم في دونكاستر، المفتش كروم وجميع معاونيه وآلاف من رجال المباحث وبوارو ودونالد فريزر وفرانكلين جيركن وتورا جراي وميجان برنارد وماري دراور، وقررنا أن نوسع نطاق البحث بأن نتفرق في أنحاء البلدة، وقد تمّ الاتفاق على أن يذهب كل من فرانكلين ودونالد فريزر بمفرده، وأن يصحب بوارو الآنسة جراي الوحيدة بيننا التي سبق أن شاهدت القاتل، وأن أصحب ماري دراور لأن اسمها الثاني -كما أشار بوارو- يبدأ بحرف الدال، إذ ليس من المستبعد أن يتعمد المجرم المجهول طعن بوارو في الصميم بقتل واحد من أعوانه!

قال لي بوارو ونحن نفترق: اطمئن يا هيستنغز هذه المرة، إن النجاح المتواصل سوف يدفع بالمجرم المجهول إلى الإيمان بحظه، ومن ثم لن يكون شديد الحرص هذه

المرة، وأكبر ظني أنه سيرتكب بعض الأخطاء التي ستوقع به في أيدينا.

فقلت في شيء من الارتياب: أعتقد أن هذا المجرم لن يفي بوعده ويرتكب جريمته الرابعة هذه المرة وهو يدرك إحكام الحلقة عليه.

ابتسم بوارو وقال: إنه مجرم يعاني هذا النوع من الجنون الذي يجعله يصر كل الإصرار على تنفيذ ما وعد به مهما تكن الظروف والأحوال، لأنه سيدرك تماماً أن تراجعه عن تنفيذ خطته سيعني الفشل، وهذا ما لا يتفق مع الدوافع التي دفعت به إلى ارتكاب هذه الجرائم.

- أكبر الظن أنه سيكون ماكراً جداً يا بوارو إذا قرر ارتكاب هذه الجريمة الرابعة.

- تأكد يا هيستنغز أن عجلة الحظ قد دارت وسوف يقع هذه المرة في أيدينا، إلى اللقاء.

* * *

غمغم السيد ليدبتر بخفوت وامتعاض عندما نهض الرجل الجالس بالقرب منه في دار السينما وسار في طريق الخروج وهو يتخطاه متعثراً ثم يزداد تعثراً ويسقط وقبعته على المقعد الأمامي، ثم ينحني ويلتقطها وينصرف. كل هذا أضاع بعض لحظات ثمينة من مناظر فيلم «ليس عصفوراً» الذي كان السيد ليدبتر ينتظر مشاهدته بفارغ الصبر. وتململ السيد ليدبتر في مقعده وهو يتساءل في نفسه: "لماذا لا ينتظر هؤلاء الناس

حتى نهاية الفيلم قبل أن ينصرفوا؟". حسناً، لقد انصرف ذلك الجار المتعثر الثقيل الظل وها هو السيد ليدبتر يستمتع بمتابعة الفيلم حتى نهايته.

تنهد بارتياح عندما أضيئت الأنوار في الصالة ونهض واقفاً ببطء وهو يطرف بعينيه، ولم يكن من عادته أن يسرع بمغادرة دار السينما عقب انتهاء الفيلم وإنما كان يحب أن يتمهل حتى يعود إلى واقع الحياة تماماً. وتلفت حوله... الصالة لم تكن مزدحمة، كان عدد المتفرجين قليلاً جداً. آه، لا شك أن معظم الناس كانوا في تلك الساعة يتفرجون على سباق الخيل احتفالاً بعيد سانت ليجير. واستعد السيد ليدبتر للخروج وراء المتفرجين الذين كانوا يتسابقون إلى أبواب السينما، ولاحظ أن الرجل الجالس على المقعد الأمامي بالنسبة له ظل جالساً مطرق الرأس وكأنه مستغرق في النوم. شعر السيد ليدبتر بالسخط على مثل هذا الرجل الذي ينام في أثناء عرض فيلم رائع مثل «ليس عصفوراً»! وهزّ كتفيه وسار في طريق الباب، ولما وصل إليه راح ينتظر دوره للخروج، ولم يدر لماذا التفت وراءه إلى حيث كان جالساً. وعلى أية حال فقد رأى جمعاً من الناس حول ذلك الرجل الذي ظنه نائماً في مقعده. وتردد برهة ثم خرج، وهكذا فاتته فرصة رؤية الحادث الذي أقام الرأي العام وأقعده في جميع أنحاء البلاد.

لقد تبين لمدير الصالة حين هزّ الرجل الذي ظنه -هو أيضاً- نائماً أنه مقتول بطعنة سكين في القلب. واجتمع حوله بعض الناس الذين لم يكونوا قد انصرفوا بعد، وساد الفزع الجميع حين هتف أحدهم مشيراً إلى دليل الحروف الهجائية

للسكك الحديدية الموضوع بجانب القتيل.

لقد ارتكب المجنون جريمته الرابعة!

* * *

غادر السيد جوست سينما ريجال وتطلع إلى السماء، كان الجو في ذلك الأمسية صحواً وجميلاً وقال لنفسه: "كل شيء على ما يرام"، وسار في طريقه مبتسماً حتى وصل إلى فندق بلاك سوان الذي كان ينزل فيه وصعد الدرج إلى غرفته الصغيرة الخانقة المطلة على فناء داخلي وموقف للسيارات.

واختفت البسمة فجأة من وجهه حين لمح على كم معطفه -بعد دخوله الغرفة- آثار دماء، وحين لمسها وجدها لا تزال رطبة، دماء رطبة! دس يده في جيب المعطف فإذا هي تخرج ممسكة بسكين حاد طويل النصل ملوث بالدماء أيضاً، ودار بعينيه في أنحاء الغرفة كحيوان واقع في الفخ وتهالك جالساً على مقعد قريب وهو يتمتم لنفسه: "هذه غلطتي أنا"! وبدا كأنه يتحدث مع شخص مجهول بلهجة التلميذ الذي يلتمس الصفح من ناظر المدرسة.

وقعت نظراته على حوض الاغتسال فنهض إليه وخلع معطفه وملأ الحوض بالماء وراح يغسل المعطف من آثار الدماء الموجودة عليه. لقد غدا الماء أحمر اللون! وفي تلك اللحظة سمع نقراً على الباب، وتسمر في مكانه لا يتحرك وراح يحملق فيما أمامه ببلاهة، وفتحت الباب سيدة شابة ممتلئة الجسم ودخلت تحمل إبريقاً وتقول: معذرة يا سيدي،

هذا هو ماؤك الساخن.

واستطاع أخيراً أن يقول لها، شكراً، لقد اغتسلت بالماء البارد.

وحين رأى نظراتها تقع على الماء الأحمر في الحوض قال في فزع: لقد جرحت يدي.

وبعد لحظة طويلة، طويلة جداً من السكون قالت: حسناً يا سيدي.

وقف السيد جوست في مكانه كتمثال من الحجر! لقد جاءت النهاية أخيراً! وأرهف سمعه: هل هم قادمون إليه الآن؟ لكنه لم يسمع غير دقات قلبه المضطرب، وتحول جموده فجأة إلى حركة دافقة، فارتدى معطفه بسرعة وسار على أطراف أصابعه إلى الباب وفتحه، ثم أرهف السمع مرة أخرى، ثم هبط الدرج متسللاً، وعند نهايته وقف حائراً. وفجأة لمح الباب الخلفي المؤدي إلى الفناء فخرج منه وسار متمهلاً أمام اثنين من السائقين كانا يغسلان سيارتيهما، ثم مضى إلى شارع جانبي، وظل ينتقل من شارع إلى آخر في اتجاه المحطة وهو يتمتم: لو أن الحظ يساعدني فأستقل القطار دون أن يتعرف عليّ أحد!

* * *

كان المفتش كروم جالساً ينصت إلى حديث السيد ليدبتر المضطرب: أؤكد لك يا سيدي المفتش أن قلبي يهوي بين ضلوعي كلما فكرت في أن القاتل الرهيب كان جالساً بجواري

طيلة عرض الفيلم.

فتذرع المفتش كروم بالصبر وقال: دعنا من هذه التعليقات يا سيد ليدبتر، أرجوك أن تحدثني بوضوح. هل تقول إن ذلك الرجل انصرف قرب نهاية الفيلم؟

- أجل، أجل.

- وهل مرّ بك وتعثر في أثناء مروره؟

- نعم، إنني أدرك الآن أنه قد تظاهر بالتعثر، ولا شك أنه طعن الرجل الذي كان جالساً أمامي وهو يتظاهر بأنه يسترد قبعته.

- ألم تسمع شيئاً، لا صيحة ولا آهة ولا أي شيء؟

- ربما سمعت شيئاً ولكني حسبته من الفيلم.

- هل تستطيع أن تصف لنا هذا الرجل؟

- كان رجلاً ضخماً يزيد طوله على ستة أقدام، كان مارداً.

- أشقر أم خمري اللون؟

- لست واثقاً من هذا ولكنه كان أصلع، رهيب المنظر.

- هل كان يعرج؟

- آه، ما دمت قد ذكّرتني يا سيدي المفتش فيمكنني أن أقول إنه كان يعرج فعلاً، وأذكر أيضاً أنه كان ملوح الوجه كأنه نصف زنجي.

- هل كان موجوداً في مقعده قبل بدء عرض الفيلم؟

- لا، لقد حضر بعد البدء بقليل عندما أظلمت القاعة.

أومأ المفتش كروم برأسه. وبعد انصراف السيد ليدبتر قال لمساعده: هذا أسوأ أنواع الشهود، إنه على استعداد لأن يقول أي شيء توحي به إليه، وأكبر الظن أنه لا يعرف أي شيء عن شكل الرجل. حسناً، استدعِ مدير الصالة.

أقبل مدير الصالة الذي كان عسكرياً سابقاً ورفع يده بالتحية، فقال له المفتش كروم: والآن، دعنا يا جيمسون نسمع شهادتك.

رفع جيمسون يده بالتحية العسكرية مرة أخرى وقال: تماماً يا سيدي. عند قرب انتهاء العرض سمعت أن أحد المتفرجين لا يزال جالساً في مقعده في حالة تدل على أنه نائم أو مريض أو أي شيء من هذا القبيل، وكان ذلك السيد جالساً في مقعد بالصالة. كان منحنياً على نفسه بشكل يلفت الأنظار، ورأيت سيداً آخر واقفاً بالقرب منه يقول إن جلسة ذلك السيد الآخر غير طبيعية، ولما وضع يده على كتف السيد المنحني على نفسه لاحظت فوراً أنها تلوثت بالدماء، فأرسلت من فمي سيلاً من اللعنات. وأسوأ من هذا يا سيدي أننا وجدنا السيد المنحني على نفسه مقتولاً بطعنة في صدره أمام القلب والدماء لا تزال تنساب منها، وعلى المقعد الذي بجواره دليل الحروف الهجائية للسكك الحديدية، فانتشر الفزع بيننا وبادرنا إلى إخطار مركز الشرطة.

قال المفتش: حسناً يا جيمسون، لقد أحسنت التصرف.

- شكراً يا سيدي.

- ألم تلاحظ رجلاً غادر الصالة قبل نهاية الفيلم بلحظات؟

- غادرها كثيرون قبل نهاية العرض يا سيدي.

- هل يمكن أن تصفهم؟

- لا أظن، وإنما أعرف منهم فقط السيد جيوفري بان تل والشاب سام بيكر وزوجته الحسناء، ولكنني لم ألاحظ شخصاً بالذات يا سيدي.

- هذا أمر يؤسف له، حسناً يا جيمسون.

- شكراً يا سيدي.

رفع جيمسون يده بالتحية العسكرية وانصرف. وما كاد ينصرف حتى أقبل أحد رجال الشرطة وقال للمفتش كروم: السيد بوارو ومعه سيد آخر يريدان مقابلتك يا سيدي.

قطب كروم جبينه وقال: دعهما يدخلان.

* * *

الفصل الثالث عشر

دخلت وراء بوارو إلى مكتب المفتش كروم، وبعد أن تبادلنا التحية قال المفتش كروم لبوارو: لقد ارتكب المجرم المجهول جريمته الرابعة يا سيد بوارو.

تسمرنا في أماكننا من فرط الجزع والدهشة بينما قال المفتش مستطرداً: وفي هذه المرة استخدم السكين أداة للقتل.

- هل وجدتم بجوار القتيل دليل السكك الحديدية؟

- نعم.

- وهل عرفتم شخصية القتيل؟

- نعم، لقد أخطأ القاتل المجهول هذه المرة لأن القتيل رجل يدعى جورج إيرسفيلد.

- عجباً!

- لعله تجاوز حرفاً هذه المرة. لنسمع الشاهد التالي، فقد عرفت أنه يريد الانصراف بسرعة.

دخل رجل في منتصف العمر دميم الشكل مضطرب الأعصاب، وحاول أن يعبر عن اضطرابه بالثرثرة ولكن المفتش

كروم سأله قائلاً: اسمك أيها السيد؟

- دونز، روجر دونز.

- مهنتك؟

- مدرس بمدرسة هايفلد الثانوية.

- أخبرنا الآن بما تعرفه عن الحادث يا سيد دونز.

- أستطيع أن أقول لكم ما أعرفه بكل إيجاز. عندما انتهى عرض الفيلم نهضت لأنصرف، وكان بالقرب مني رجل حسبته نائماً لأنه كان منحنياً على نفسه، وكدت أتعثر بقدميه وأنا أحاول المرور أمامه. وفجأة ناديت مدير الصالة حين خطر لي أن الرجل مريض، وحين رفعت يدي عن كتفه رأيتها ملوثة بالدماء وأدركت فوراً أنه قد طُعن بسكين نافذة إلى القلب. وقد لاحظنا (مدير الصالة وأنا) وجود دليل السكك الحديدية على المقعد المجاور، وأؤكد لكم أيها السادة أن قلبي كاد يقف من فرط الفزع... وقلبي بطبيعته ضعيف.

نظر المفتش كروم إلى السيد دونز ثم قال له: يمكنك أن تعتبر نفسك سعيد الحظ يا سيد دونز.

- لماذا يا سيدي؟

- قبل أن أخبرك أريد أن أسألك: هل كنت جالساً على مقربة من الرجل الذي قتل؟

- نعم، على مسافة مقعدين منه. وكنت في أول الأمر جالساً بجواره مباشرة ثم انتقلت إلى مقعد ليس أمامه أحد حتى أرى الفيلم بوضوح.

- أنت في نفس طول الرجل القتيل وتلف حول عنقك مطرفاً صوفياً كما كان الأمر معه.

- ولكن، ما علاقة هذا كله يا سيدي؟

قال المفتش كروم: أراهن أن القاتل كان يتبعك أنت إلى دار السينما وكان ينوي أن يقتلك لأن اسمك الأخير يبدأ بالحرف «د»، ولكنك حين انتقلت إلى مقعد آخر أخطأك وقتل السيد جورج وهو يحسبه أنت.

ولم يحتمل قلب السيد دونز الضعيف أكثر من هذا، فتهالك الرجل على أقرب مقعد إليه وهو يلهث قائلاً: ماء، أريد ماء! وما أن أسرع أحد السعاة إليه بالماء حتى أفاق الرجل وغمغم وهو ينهض مضطرباً: لا، لا، لا أصدق هذا! لماذا يريد أن يقتلني أي إنسان، هو أو غيره؟ أنا رجل مسالم لم أسئ إلى أحد أبداً، هل تريدون مني شيئاً آخر؟ لا! حسناً، طاب يومكم أيها السادة، طاب يومكم.

استدعى المفتش كروم أحد مساعديه وقال له: رايس، أرسل اثنين من رجالنا لحراسة السيد دونز دون أن يشعر، فإنني أعتقد إن المجرم المجنون قد يعمد إلى تصحيح غلطته ويحاول القضاء على هذا الرجل.

أومأ بوارو برأسه موافقاً وقال: ما دام ذلك المجرم قد بدأ يخطئ فلا شك أن أخطاءه سوف تتوالى.

أقبل أحد رجال الشرطة وقال: في الخارج رجل وسيدة من فندق بلاك سوان لديهما أقوال يريدان الإدلاء بها في

موضوع جرائم «أ.ب.ج».

- أدخلهما، أدخلهما بسرعة.

دخل صاحب فندق بلاك سوان وكان رجلاً كبير الجسم يدعى السيد بول، ومعه سيدة شابة ممتلئة الجسم ينم وجهها عن الانفعال الشديد. قال الرجل بصوت منخفض غليظ: أرجو ألا أضيع وقتكم الثمين أيها السادة، ولكن هذه الفتاة ماري تؤكد أن لديها أقوالاً هامة بخصوص المجرم «أ.ب.ج».

فقال المفتش كروم: حسناً يا فتاتي، ما اسمك؟

- ماري، ماري ستراود.

- ماذا تريدين أن تقولي يا ماري؟

فنظرت ماري إلى صاحب الفندق متسائلة، فقال هذا: إن عملها في الفندق هو حمل الماء الساخن إلى النزلاء، وكان لدينا نحو سبعة أو ثمانية نزلاء بعضهم جاء للفرجة على السباق وبعضهم يقيم لأغراض تجارية. والآن، تكلمي يا فتاة.

قالت ماري وهي تدير عينيها في وجوه المجتمعين: طرقت على الباب ولكن لم يرد عليّ أحد، وأنا عادة لا أدخل إلاّ إذا قال لي النزيل "ادخلي"، ولما لم يقل أحد شيئاً دخلت. ووقفت برهة أنظر إلى النزيل وهو يغسل يديه في الحوض...

وتوقفت عن الحديث فجأة فقال كروم: استمري، وبعد؟

- قلت له إنني جئت بالماء الساخن، فقال إنه اغتسل

بالماء البارد. ونظرت إلى الماء في الحوض فوجدته... يا للهول! أحمر.

فهتف كروم باهتمام: أحمر؟!

هنا تدخّل السيد بول في الحديث فقال: أخبرتني الفتاة أنها رأته أيضاً ممسكاً بكم معطفه كأنما كان يغسله في الحوض، لأن الكم كان غارقاً بالماء!

- تماماً يا سيدي وكان وجهه يدل على أنه في حالة غير طبيعية.

- متى كان ذلك؟

- في نحو الخامسة والربع مساء أو أكثر قليلاً.

- أي منذ ثلاث ساعات، فلماذا لم تأتِ يا سيد بول مع الفتاة فوراً؟

قال السيد بول: لم نسمع بنبأ الجريمة إلاّ أخيراً، وحين سمعت الفتاة النبأ تذكرت الماء الأحمر في الحوض فصرخت وأخبرتني بما رأت، فأسرعت إلى غرفة ذلك النزيل فلم أجده فيها ولهذا بادرت بالحضور مع ماري.

تناول كروم ورقة وقلماً وقال: صفي ذلك النزيل بسرعة يا ماري.

- رجل متوسط الحجم محني القامة قليلاً، يضع على عينيه نظارة طبية.

- وملابسه؟

- بذلة قاتمة اللون وقبعة من نوع هامبرج، وتدل ملابسه بوجه عام على رقة الحال.

ولم تستطع ماري أن تضيف إلى هذا الوصف أكثر من ذلك. أرسل كروم اثنين من رجاله فوراً إلى فندق بلاك سوان، وما هي غير لحظات حتى عادا ومعهما سجل أسماء النزلاء فيه، وأشار السيد بول صاحب الفندق إلى اسم بين الأسماء وقال: هذا هو توقيعه يا سيدي.

تجمعنا حول السجل حيث قرأ المفتش كروم الاسم قائلاً: أ. ب. جوس، أو جوش.

غمغم بوارو بصوت له دلالته: أي أ. ب. ج!

وسأل كروم صاحب الفندق قائلاً: ألم يترك هذا النزيل شيئاً وراءه؟

- ترك حقيبة سفر متوسطة الحجم فيها ملابس داخلية قليلة ومجموعة من علب الكرتون المسطحة.

- علب كرتون مسطحة؟ ماذا بداخلها؟

- جوارب... جوارب نسائية.

هنا التفت كروم إلى بوارو وقال: أهنئك يا سيد بوارو!

* * *

عاد المفتش كروم إلى مكتبه، وصلصل جرس الهاتف على مكتبه فرفع السماعة حيث سمع صوت عامل التليفون يقول: هنا شاب يريد أن يدلي بأقوال في قضية «أ.ب.ج».

تنهد كروم وقال لنفسه: كل واحد يريد أن يدلي بشيء في هذه القضية، وليتهم يدلون بما يفيد! ثم قال في الهاتف: دعه يصعد.

دخل أحد رجال المباحث يصحب شاباً متردداً وقال: "هذا هو السيد توم هارنيجيان يا سيدي المفتش، إن لديه أقوالاً عن قضية أ.ب.ج". فنهض المفتش وصافح الشاب ثم قال له: طاب صباحك يا سيد هارنيجيان، تفضل بالجلوس. حسناً، ماذا لديك من أقوال؟

وجلس توم هارنيجيان، وهو -كما نذكر- خطيب ليلي ماربري ابنة السيدة ماربري صاحبة النزل الذي يقيم فيه السيد ألكسندر بونابرت جوست. جلس توم في شيء من الروع إذ كانت تلك أول مرة يدخل فيها إدارة اسكتلانديارد، وأخيراً قال: ربما لا يكون في أقوالي شيء، ولعلي بذلك أضيع وقتكم الثمين.

- هذا ما سوف نعرفه بعد أن نسمع حديثك يا سيد هارنيجيان.

- أنا يا سيدي خاطب لفتاة شابة تدير أمها شقة مفروشة حيث تؤجر غرفها لبعض النزلاء، وتقع في طريق تاون بلندن كما تعلم يا سيدي.

- حسناً، وبعد؟

- وهي في الطابق الثاني، وينزل في إحدى الغرف المفروشة منذ عام رجل يدعى جوست.

- جوست؟ آه!

- نعم يا سيدي. وهو رجل في منتصف العمر غريب الأطوار هادئ الطباع، يبدو أن الحياة قست عليه بعض الشيء، ويمكنني القول إنه من النوع الذي لا يؤذي ذبابة، ولهذا ما كان يخطر ببالي أبداً أن أتهمه بشيء لولا بعض الدلالات الغريبة التي لاحظتها عنه.

وراح توم في شيء من الاضطراب والارتباك يحدّث المفتش كروم بقصة مقابلته للسيد جوست في أوستن حين أعاد إليه صحيفته وتذكرة سفره ثم استطرد يقول: أترى يا سيدي؟ لقد كانت ليلي، أعني خطيبتي، واثقة بأنه سيسافر إلى شلتام بينما كان مسافراً كما ظهر من تذكرته إلى دونكاستر. ولم أهتم بهذا كثيراً في أول الأمر، ولكن عندما استطردت في الحديث معها وعلمت منها أنه كان في توركاي القريبة من جيرستون عند وقوع الجريمة الثالثة وأنه كان غائباً في مكان ما على شاطئ البحر عند وقوع الجريمة الثانية في بكسهيل... عندما سمعت هذا بدأ الشك يخامرني في أمره، رغم أنه -في رأيي- لا يستطيع أن يؤذي ذبابة!

وبعد برهة صمت وجيزة استطرد الشاب يقول: وحين قرأت نشرة إدارة اسكتلانديارد عن رغبتها في الاستدلال على كل من يبدأ اسمه بالحرفين «أ.ب.» ثم الاسم سوس أو سوش، أسرعت بالاتصال بالسيدة ماربري حيث علمت منها أن نزيلها الغريب الأطوار السيد جوست يحمل اسماً كاملاً يبدأ بالحرفين «أ.ب.»، وقد دهشنا كثيراً وأبينا أن نصدق أنفسنا،

ولكن السيدة ماربري كانت واثقة تماماً أن نزيلها هذا كان غائباً عن غرفته في الليالي التي وقعت فيها الجرائم الثلاث الأخيرة، وراحت هي وابنتها تعتصران ذاكرتيهما لتتذكرا أين كان أثناء وقوع الجريمة الأولى، جريمة أندوفر التي حدثت منذ ثلاثة أشهر، وقد تذكرت السيدة ماربري أن أخاً لها كان قد وصل من كندا في ذلك الحين، ولما لم تجد له غرفة يبيت فيها اقترحت ليلي عليها أن يبيت في غرفة السيد جوست لأنه قال يومذاك إنه سيغيب ليلته في الخارج. وقد تحرينا تاريخ وصول الباخرة التي أقلت شقيق السيدة ماربري إلى لندن وعلمنا أنها وصلت ميناء ساوثمبتون في صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو الماضي!

كان المفتش كروم ينصت باهتمام إلى حديث الشاب، فلما فرغ من حديثه قال له: أهذا كل شيء؟

- أجل يا سيدي.

- لقد أحسنت بمجيئك إلينا، أين السيد جوست هذا الآن؟ إنني أحب أن ألتقي به لألقي عليه بعض الأسئلة، هل هو في غرفته الآن؟

- نعم يا سيدي.

- متى عاد من دونكاستر؟

في ليلة وقوع الجريمة. وتقول السيدة ماربري إنه لا يكف عن شراء الصحف ولا عن الحديث عن نفسه!

بعد أن دونّ المفتش كروم العنوان شكر توم هارنيجيان

بحرارة، وبعد انصراف توم استدعى أحد مرؤوسيه وطلب منه أن يرسل بعض رجال المباحث لمراقبة عنوان السيد جوست.

* * *

مرة أخرى تلفت السيد جوست حوله في جوانب غرفته المفروشة بمسكن السيدة ماربري، وبدت في عينيه نظرة الحيوان الواقع في الشرك. وفجأة نهض وقد قرر أن يخرج. إلى أين؟ إنه لا يدري، وتسلل إلى الباب وفتحه وأطل منه برأسه، وشعر بالسيدة ماربري وهي تتحرك في المطبخ، ثم أرهف السمع قليلاً وسار على أطراف أصابعه وهبط من المسكن إلى الباب الخارجي ففتحه ووقف برهة يتلفت حوله. إلى أين يذهب؟ مرة أخرى شعر أنه لا يدري.

* * *

الفصل الرابع عشر

ومرة أخرى انعقد مؤتمر في اسكتلانديارد، وضم هذا المؤتمر نائب الحكمدار والمفتش كروم والسيد بوارو وأنا. قال نائب الحكمدار لبوارو: كانت ضربة معلّم تلك التي ذكرت في موضوع الجوارب النسائية يا سيد بوارو، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القاتل كان يتظاهر ببيع الجوارب النسائية.

فبسط بوارو يديه وقال: كان الأمر واضحاً بعد أن سمعت كلمة «الجوارب» تتردد كثيراً على ألسنة المقربين إلى الضحايا.

التفت نائب الحكمدار إلى المفتش كروم وقال: هل وضحت لك كل غوامض هذه الحالة يا كروم؟

- كلها تقريباً يا سيدي. هل أسرد كل ما لدينا من معلومات حتى الآن؟

- أرجوك أن تفعل.

- لقد ثبت لنا أنه كان في فندق ببت بمصيف توركاي قبل وقوع جريمة جيرستون بيوم واحد، وقد سجل اسمه في الفندق «أ. ب. جوست». وثبت أنه عاد إلى الفندق في ليلة

وقوع الجريمة في الساعة العاشرة والنصف مساء، أي كان في إمكانه أن يستقل قطار الساعة التاسعة والسابعة والخمسين دقيقة من محطة جيرستون فيصل إلى محطة توركاي في العاشرة وعشر دقائق.

صمت المفتش كروم برهة قبل أن يستطرد قائلاً: كذلك الحال بشأن بكسهيل، لقد نزل في فندق جلوب وسجل اسمه «أ. ب. جوست» وعرض جواربه للبيع على أكثر من اثنتي عشرة سيدة منهن السيدة برنارد، وغادر الفندق في ساعة مبكرة من مساء وقوع الجريمة ثم عاد إلى لندن في الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي. أما بشأن أندوفر فقد نزل في فندق ثيثرز وعرض جواربه على السيدة فاولر جارة السيدة آسكر (المجني عليها) كما عرضها على أكثر من خمس سيدات أخريات، وقد حصلت على الجوارب التي اشترتها السيدة آسكر منه لإهدائها لابنة أخيها ماري دراور كما يبدو... حصلت عليها من ماري وثبت أنها من نفس الصنف الذي يبيعه السيد جوست.

فقال النائب الحكمدار: هذا عظيم جداً حتى الآن.

- بعد المعلومات التي أدلى بها توم هارنيجيان ذهبت بنفسي إلى مسكن السيدة ماربري، حيث علمت أن المدعو جوست قد خرج من غرفته دون أن يشعر به أحد. وقمت بتفتيش تلك الغرفة وثبت بما لا يدع مجالاً لأي شك أنه المجرم المجهول. لقد عثرت على رزمة من أوراق الرسائل من نفس النوع الذي كتبت عليه رسائله إلى بوارو، وكذلك وجدت

في داخل خزانة الملابس كمية كبيرة من الجوارب النسائية في علب مسطحة، ولفافة بها مجموعة من دليل السكك الحديدية الهجائي، كلها جديدة. كانت اللفافة تشبه لفافات علب الجوارب تماماً بحيث يظن الذي يراها لأول وهلة أنها تضم علب جوارب لا مجموعة من أدلة السكة الحديدية.

قال نائب الحكمدار: إنه مجنون بالتأكيد.

قال المفتش كروم بلهجة الانتصار: وقد عثرت على شيء آخر، عثرت عليه في هذا الصباح فقط ولم تتح لي الفرصة بعد لإبلاغ النبأ رسمياً. والواقع أنني لم أكن أنتظر أن أجد السكين المستعملة في الجريمة الأخيرة في غرفته!

قال بوارو: مهما بلغت درجة جنونه فلا يعقل أن يخفي السكين في غرفته.

- أياً كان الأمر، فالمجنون ليس شخصاً متزن التفكير، ومن ثم فلا يستطيع الإنسان أن يحكم على نتائج تصرفاته بالمقدمات المنطقية، ولهذا خطر لي أنه ربما عاد بالسكين إلى مسكنه ولكنه أخفاها في مكان آخر، فماذا يمكن أن يكون ذلك المكان الآخر؟ إنه قائمة الصالة، فالمفروض أن أحداً لا يحرك قائمة الصالة عن موضعها. وبعد الكثير من الجهد استطعت مع رجالي أن نحرك قائمة الصالة قليلاً عن الجدار فوجدنا السكين وراءها.

- نفس السكين؟

- أجل، وكانت لم تزل ملوثة بالدماء.

فقال نائب الحكمدار: أحسنت يا كروم، لم يبق أمامنا غير شيء واحد.

- ما هو يا سيدي؟

- القبض على الرجل نفسه.

فقال كروم بلهجة تنم عن الثقة الكاملة: سوف يتم هذا في أقرب فرصة.

التفت إلى بوارو وقال: ما رأيك يا سيد بوارو؟

كان بوارو قد تنبه من ذهوله وقال: معذرة، ماذا تقول؟

- كنا نقول إن القبض على ذلك المجرم المجنون مسألة وقت، فما رأيك؟

- أوه، نعم، نعم. بلا شك.

كان صوته ينم عن شرود الفكر فقال له نائب الحكمدار: هل هناك ما يثير قلقك يا سيد بوارو؟

- إن هناك ما يهمني جداً أن أعرف الإجابة عليه، وهو السبب المبرر الدافع على هذه الجرائم.

قال نائب الحكمدار في ضجر: ولكن الرجل مجنون، ألا يعتبر هذا سبباً كافياً؟

- لا يا سيدي، هذا لا يعتبر سبباً كافياً في رأيي.

فقال كروم: ربما يتضح لنا السبب عندما نقبض عليه.

قال نائب الحكمدار: ترى أين هو الآن؟

* * *

توقف السيد جوست بجوار دكان الفاكهة الواقع أمام دكان السيدة آسكر عبر الشارع وراح ينظر إلى دكان السيدة آسكر. نعم، إن اللافتة تحمل اسمها بوضوح «أ. آسكر - حلوى وسجائر وصحف»، وبجانب اللافتة ورقة مكتوب عليها "للإيجار". لقد أصبح الدكان خالياً بلا حياة.

"معذرة يا سيدي"... قالتها زوجة بائع الفاكهة للسيد جوست لكي تتناول بعض ثمار الليمون. واعتذر لها وتحرك جانباً، وفي بطء وتمهل راح يسير متثاقلاً في اتجاه الطريق العام المؤدي إلى خارج البلدة. إن الأمر شاق، شاق تماماً لأنه لم يعد يمتلك قرشاً واحداً، وأشق من هذا أنه لم يتناول طعاماً طوال اليوم. ويبدو أن الجوع يملأ النفس بمشاعر غريبة ويجعل الرأس خفيفاً مضطرباً. لاحت منه نظرة إلى واجهة كشك لبيع الصحف فطالعته العناوين الضخمة عن جرائم «أ.ب.ج» الرهيبة وعن المجرم الذي اختفى والمؤتمر الذي اشترك فيه هيركيول بوارو مع رجال المباحث. تمتم السيد جوست لنفسه قائلاً: لو أن السيد بوارو يعرف!

وعاد يستأنف السير وهو يتكلم مع نفسه: لن أستطيع أن أمضي هكذا طويلاً! حقاً إن عملية المشي عجيبة غريبة لمن يلاحظها، ولكن أليس الإنسان حيواناً عجيباً غريباً؟ أو ليس هو، ألكسندر بونابرت جوست، حيواناً عجيباً غريباً بوجه خاص؟! لقد كان هكذا دائماً، وكان الناس دائماً يضحكون عليه. ولا يستطيع أن ينحي عليهم باللوم، إلى أين هو ذاهب؟ إنه لا يعرف، لقد وصل إلى النهاية ولم يعد في مقدوره أن يرى شيئاً غير تحركات قدميه، قدم تمضي أمام قدم. رفع

رأسه ورأى الأضواء أمامه ولافتة كبيرة مكتوبٌ عليها: «مركز الشرطة». ضحك السيد جوست وقال: ما أعجب هذا!

ثم تقدم نحو المدخل، وقبل أن يصل إلى أولى درجات الدرج تمايل واهتز ثم سقط على الأرض مغشياً عليه!

* * *

الفصل الخامس عشر

كان يوماً من أيام نوفمبر الصافية الأديم وكان الدكتور ثومبسون وكروم والمفتش جاب قد جاؤوا إلى مسكن بوارو ليخبروه آخر تفاصيل قضية «أ. ب. جوست»، وكان بوارو ملازماً الفراش بسبب نوبة برد.

قال المفتش جاب: لقد حول قاضي التحقيق القضية إلى محكمة الجنايات.

قلت: هل سيصر الدفاع على أنه مجنون غير مسؤول عن جرائمه؟

فقال جاب: إن الدفع بالجنون لن يؤدي إلى إطلاق سراح المتهم، بل سيدفع به إلى مصحة الأمراض العقلية حيث لا يخرج منها إلاّ بمرسوم. وأردف قائلاً: لكنني أعتقد أن المحامي السيد لوكاس يرى أمام المتهم ثغرة يمكنه النجاة منها، وهي إقامة الدليل الحاسم على أن جوست لم يكن في بكسهيل ليلة وقوع الجريمة. ولكنه لن يستطيع في رأيي أن ينقذ المتهم من حبل المشنقة في نهاية الأمر.

قال بوارو للدكتور ثومبسون: ما رأيك يا دكتور؟

- تسألني عن رأيي في جوست؟ لا أدري ماذا أقول. إنه يتظاهر بتمام العقل والحكمة، ولم أجد حتى الآن أي عرض من أعراض الجنون في حديثه أو تصرفاته، ولكنه مصاب بداء الصرع.

- عجباً!

- لقد فاجأته نوبة الصرع وهو يدخل مركز الشرطة في أندوفر.

فسألت الطبيب قائلاً: هل يمكن أن يرتكب المريض بالصرع بعض الأعمال، كالجرائم مثلاً، دون أن يشعر بما يفعل؟ إنني أحس إنه صادق في إنكاره أمام المحققين.

- لا تنخدع بحركاته وأقواله المسرحية عندما كان يقسم أمام المحققين أنه لم يرتكب أية جريمة من هذه الجرائم، ورأيي أنه كان على إدراك كامل بما ارتكب!

قال كروم: إن تحمس المجرم في الإنكار يكون في كثير من الأحيان دليلاً على إدانته.

قال الدكتور ثومبسون: والدليل الحاسم على إدراكه التام لارتكابه هذه الجرائم تلك الرسائل التي أرسلها إليك يا سيد بوارو، إنها تدل على عقلية تعرف كيف تحكم التدابير.

قال بوارو: ألم يقل جوست شيئاً بخصوص هذه الرسائل بعد؟

- لا، إنه لا يزال مصراً على أنه لا يعرف من أمرها شيئاً.

- أنا شخصياً لن أعتبر القضية منتهية حتى أعرف لماذا

اختارني بالذات لكي يرسل هذه الرسائل إليّ.

- طبعاً، طبعاً. هذا من حقك.

قال بوارو: ذلك الشاهد العجيب المدعو سترانج، ألا يزال مصراً على قوله بأن المتهم كان يلعب الدومينو معه حتى ساعة متأخرة من مساء اليوم الرابع والعشرين من يوليو في فندق ببلدة إيستبورن؟

أجاب المفتش جاب الذي كان قد بقي بعد انصراف الدكتور ثومبسون: نعم، إنه مصر عليها كل الإصرار، هل يهمك أمر هذه الشهادة يا بوارو؟

- كل الأهمية.

- ولكنها لا تهمني كثيراً لأنني لا أصدقها، إلاّ أن المحامي لوكاس سوف يعرف كيف يستفيد منها في دفاعه.

- صفْ لي ذلك الشاهد العنيد يا جاب.

- إنه رجل في نحو الأربعين، قوي البنية متين الجسم، شديد الثقة بنفسه وبآرائه، يعمل مهندساً في المناجم. وهو الذي تقدم من تلقاء نفسه للشهادة وأصرّ عليها وأجل بسببها سفره إلى تشيلي.

فقال بوارو مفكراً: أي أنه من طراز الرجال الذين يرفضون الاعتراف بالخطأ مهما يكن الحال.

فقلت أنا وكنت قد سمعت شهادته أثناء التحقيق: إنه من أشد الناس عناداً وإصراراً على أقواله، لقد أقسم بكل شيء

مقدس أنه التقى مصادفة بجوست في فندق وايت كروس ببلدة إيستبورن في مساء اليوم الرابع والعشرين من يوليو الماضي، أي في ليلة وقوع جريمة بكسهيل، وحين رآه وحيداً يائساً أشفق عليه وراح يتحدث معه، وبعد طعام العشاء لعبا معاً الدومينو. ويبدو أن ذلك المدعو سترانج من هواة هذه اللعبة، وقد أدهشه وسره أن يجد في جوست غريماً بارعاً. وقد أقسم مرات عديدة على أنهما ظلا يلعبان ساعات طوالاً متوالية وأنهما لم يفرغا من اللعب إلاّ في منتصف الليل، ولهذا فهو قد أقسم مرات ومرات بكل مقدس أن جوست لا يمكن أن يكون مرتكب جريمة بكسهيل لأنه كان موجوداً معه في إيستبورن حتى آخر لحظة من الساعة الثانية عشرة مساء في اليوم الرابع والعشرين، وقد ثبت طبياً أن الجريمة ارتكبت في هذه الساعة. فكيف استطاع جوست أن يكون موجوداً في مكانين مختلفين في وقت واحد؟ لا سيما وأن المسافة بين البلدتين أربعة عشر ميلاً.

قال بوارو: هذه مسألة تستحق التفكير والتأمل.

فهزّ كروم كتفيه وقال: حتى لو ظل ذلك المدعو سترانج على شهادته فلا تزال لدينا جريمة دونكاستر بما فيها من السكين الملوثة بالدماء وكم المعطف الذي كان يغسله في الحوض. إنه لن يستطيع أن يجد في هذه الجريمة ثغرة واحدة، ثم هناك جريمة جيرستون، ثم أندوفر... إن هذه الجرائم الثلاث الثابتة عليه تدل على أنه مرتكب الجريمة في بكسهيل مهما أقسم وأصر سترانج على شهادته.

قال جاب: إن مهمتك يا سيد بوارو أن تبين لنا كيف

يمكن التوفيق بين إصرار سترانج على شهادته وبين ارتكاب جوست لجريمة بكسهيل.

وبعد انصراف المفتش قلت لبوارو: ما رأيك في هذا كله؟

- وما رأيك أنت يا هيستنغز؟ أتعتبر الموضوع منتهياً؟

- أعتقد هذا، لأن الرجل قد وقع أخيراً والأدلة متوافرة إلى حد مذهل.

- أنا شخصياً لا أعتبر الموضوع منتهياً حتى أعرف كل شيء عن ذلك الرجل.

- لقد عُرف عنه الشيء الكثير.

- لا، لا، لم يعرف عنه في الواقع شيء. عرفنا أين ولد حقاً وأنه اشترك في الحرب العالمية الأخيرة، وأنه قد جُرح في رأسه فأعفي من الخدمة بسبب داء الصرع، ونعرف أنه أقام سنتين في غرفة مفروشة بمسكن السيدة ماربري وأنه كان دائماً هادئاً منعزلاً ومن النوع الذي لا يشعر به أحد، ونعرف أنه وضع خطة هذه السلسلة من الجرائم وأحكم تنفيذها، وفي النهاية ارتكب عدة أخطاء عجيبة لا يرتكبها أي مبتدئ في عالم الجريمة، ونعرف أيضاً أنه كان يقتل ضحاياه بلا رحمة أو شفقة... أترى يا هيستنغز مبلغ المتناقضات في شخصيته؟ داهية وأبله، عطوف وقاس لا يرحم، هادئ منعزل وجبار سفاك، هذه المتناقضات كلها لا بد أن يكون لها عامل أساسي يربط بينها!

- إذا كنت تريد أن تحلل نفسيته على هذا النحو فلا شك...

فقاطعني بوارو وقال: لا، لا، أنا في الواقع لا أكاد أعرف عن حقيقته شيئاً.

- لعلها شهوة القتل.

- أجل، هذا الحافز يفسر الشيء الكثير ولكنه لا يقنعني، فهناك أشياء كثيرة أريد أن أعرفها عن يقين، مثلاً: لماذا ارتكب هذه الجرائم؟ ولماذا اختار هؤلاء الناس بالذات؟

- لأن أسماءهم مرتبة بالحروف الهجائية.

- هل كانت بيتي برنارد مثلاً الفتاة الوحيدة في بكسهيل التي يبدأ اسمها بالحرف «ب»؟ آه، لقد خطرت لي فكرة! لا بد أنها فكرة صائبة، بل يجب أن تكون فكرة صائبة.

ثم استغرق في تفكير عميق حتى ظننته نائماً، ويبدو أنني أنا الذي نمت لأنني لم ألبث أن تنبهت على يده وهي تربت على كتفي وعلى صوته وهو يهتف قائلاً: يا عزيزي هيستنغز، يا ملهمي العبقري!

نظرت إليه في ارتباك لهذا التقدير المفاجئ والإعجاب غير المنتظر، أما هو فقد استمر يقول: أنت تميمة الحظ لي يا هيستنغز، أنت دائماً تلهمني بأول ضوء ينير لي السبيل.

فسألته قائلاً: وكيف ألهمتك هذه المرة؟

- بينما كنت ألقي على نفسي بعض الأسئلة تذكرت

ملاحظة سمعتها منك، ملاحظة وضيئة ملهمة. ألم أقل لك ذات مرة أنك عبقري في ملاحظة الأشياء الواضحة، وهي نفس الأشياء التي كثيراً ما تفوتني ملاحظتها.

- ما هي ملاحظتي الملهمة الوضيئة هذه؟

- نعم، ملهمة ووضيئة لأنها أوضحت لي كل شيء. إنني أعرف الآن الإجابة على جميع أسئلتي وأعرف السبب الذي من أجله قُتلت السيدة آسكر... وإن كنت أعرف هذا السبب منذ مدة، والسبب الذي من أجله قُتل السير مايكل جيركن، والسبب الذي من أجله وقعت جريمة دونكاستر، وأخيراً (وهذا هو المهم) لماذا وقع الاختيار على هيركيول بوارو بالذات لإرسال تلك الرسائل إليه.

- هل تسمح وتشرح لي؟

- لا، ليس الآن. أريد أولاً أن أجمع بعض المعلومات، وربما استطعت جمعها من فرقتنا الخاصة. وبعد أن أعرف الإجابة على سؤال معين سوف أذهب لزيارة صاحبنا «أ.ب.ج»، وسأقف معه وجهاً لوجه. أ.ب.ج أمام هيركيول بوارو.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سنتحدث. وتأكد يا هيستنغز أن الحديث من أخطر الأسلحة التي تكشف عن مكنونات الصدور. إن الحديث -كما قال لي فرنسي عجوز ذات مرة- من الضروريات التي اخترعها الإنسان لتخفف عنه كثرة التفكير، والإنسان يا هيستنغز لا يستطيع أن يقاوم عملية كشف نفسه والإفصاح عن حقيقة

شخصيته إلاّ عن طريق الحديث، وكلما زاد من الحديث ازدادت شخصيته وضوحاً.

وهنا قلت له: ماذا تنتظر أن يقول لك جوست؟

فابتسم بوارو وقال: كذبة، وعن طريق هذه الكذبة سأعرف الحقيقة.

* * *

الفصل السادس عشر

ظل بوارو مشغولاً بضعة أيام، فكان يختفي ساعات طوالاً ثم يظهر فجأة، ثم يستغرق ساعات أخرى في تفكير عميق، كل هذا دون أن يدعوني للذهاب معه أو يشركني في أفكاره. وعندما اقتربت نهاية الأسبوع أعلن عن رغبته في الذهاب إلى بكسهيل وما يجاورها، واقترح أن أذهب معه. وبطبيعة الحال رحبت بالاقتراح. وتبين لي أن هذه الدعوة لم تقتصر عليّ فقط وإنما شملت «الفرقة الخاصة» أيضاً.

ذهبنا إلى بكسهيل، وزار بوارو أولاً السيدة والسيد برنارد حيث عرف من السيدة الموعد الذي حضر فيه جوست إليها لبيع جواربه وماذا قال لها على وجه التحديد، ثم ذهب إلى الفندق الذي كان جوست قد نزل فيه وعرف الموعد الذي رحل عنه بالتحديد، ورغم أنني لم أجد في هذا كله جديداً إلاّ أن بوارو بدا لي شديد الرضا. بعد ذلك ذهبنا إلى الشاطئ والمكان الذي قُتلت فيه بيتي برنارد، وهناك راح بوارو يسير حوله في دوائر.

ولم أجد أنا في هذا كله جدوى، لا سيما وأن المد كان يغمر المكان أكثر من مرة في اليوم. انتقل من الشاطئ الرملي

بعد ذلك إلى أقرب مكان يمكن أن تقف فيه سيارة خاصة، ثم مضى إلى الموقف الذي تبدأ منه السيارات العامة رحيلها إلى إيستبورن، وأخيراً ذهبنا جميعاً إلى مقهى جنجركات حيث شربنا الشاي الذي قدمته إلينا ميللي هيجلي. ولشد ما أدهشني أن رأيت بوارو يلاطف الآنسة هيجلي ويلمّح إلى جمال ساقيها قائلاً إن جمال الساقين في الفتيات الإنجليزيات شيء نادر، فضحكت هي ابتهاجاً وأكدت له إنه «فرنسي لطيف».

قال بوارو أخيراً: لقد انتهيت من بكسهيل ولم يبق أمامي غير زيارة إيستبورن، ولا حاجة بكم لأن تصحبوني. والآن هلمّ نعود إلى الفندق لنتناول الشاي.

وعلى المائدة قال فرانكلين جيركن: أعتقد أنك تريد أن تحطم شهادة ذلك المدعو سترانج، أليس كذلك؟

- صبراً يا صديقي، صبراً.

- يبدو لي يا سيد بوارو أنك راضٍ عن نفسك جداً.

- نعم، نعم، لأن فكرتي بدأت تتبلور إلى حقيقة أكيدة.

ثم ارتسمت أمارات الجد على وجهه وقال فجأة: لقد حدثني صديقي هيستنغز ذات يوم أنه كان يحب وهو شاب لعبة اسمها «لعبة الحقيقة»، ومؤداها أن يوجه إلى كل فرد من مجموعة اللاعبين ثلاثة أسئلة عليه أن يجيب -بصدق- على اثنين منها، ويمكنه أن يرفض الإجابة على السؤال الثالث. والأسئلة في هذه اللعبة تكون بطبيعة الحال بعيدة عن الخصوصيات المحرجة، ولهذا يستلزم أن يقسم كل لاعب

على قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

حين توقف عن الحديث برهة قالت ميجان برنارد: حسناً.

- آه، أريد أن نشترك في هذه اللعبة معاً، ويكفي أن يوجه إلى كل واحد منا سؤال واحد فقط بدلاً من ثلاثة.

قال فرانكلين جيركن في ملل: نحن على استعداد للإجابة على أي سؤال.

- أوه، ولكن الأمر أخطر من هذا، هل أنتم على استعداد للقسم؟

ولما كان الجد واضحاً في صوته فقد دهشنا جميعاً ولم يسعنا إلاّ أن نقسم الواحد بعد الآخر على قول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

وقال بوارو مسروراً: عظيم جداً، لنبدأ الآن.

قالت تورا جراي: بما أنني الأولى...

- آه! السيدات أولاً، ولكننا سنخالف هذا التقليد في هذه المرة.

ثم التفت إلى فرانكلين جيركن وقال: ما رأيك في القبعات التي ارتدتها السيدات في سباق أسكوت هذا العام؟

- هل أنت جاد في هذا السؤال يا سيد بوارو؟

- أجل.

- رأيي أنها قبعات مثيرة للسخرية والضحك.

- عجيبة، شاذة؟

- أجل.

- وأنت يا سيد دونالد فريزر، متى قمت بإجازتك السنوية هذا العام؟

- إجازتي السنوية؟ في الأسبوعين الأولين من شهر أغسطس.

التفت بوارو فجأة إلى تورا جراي وقال: لو أن السير مايكل جيركن عرض عليك الزواج بعد وفاة الليدي زوجته فهل كنت تقبلين؟

وثبت الفتاة غاضبة وهتفت قائلة: كيف تجرؤ على توجيه سؤال كهذا إليّ؟ إنه إهانة.

- ربما، ولكنك أقسمت على أن تقولي الحقيقة.

- كان السير مايكل جيركن شديد العطف عليّ وكان يعاملني كابنته، وهكذا كان شعوري نحوه.

- عفواً يا آنسة، ولكنك لم تجيبي على سؤالي.

- لا، طبعاً!

- شكراً جزيلاً.

والتفت بوارو إلى ميجان التي كان وجهها شديد الشحوب وقال: أخبريني يا آنسة، هل تتمنين حقاً أن تنتهي تحرياتي بالكشف عن الحقيقة كلها؟

- لا.

وابتسم بوارو، وقال: أنت لا تريدين ظهور الحقيقة، ومع ذلك فأنت من أشد أنصارها يا آنسة. ثم التفت إلى ماري دراور وقال: أخبريني يا آنستي، هل لك حبيب شاب؟

فوجئت الفتاة المسكينة واضطرم وجهها ثم تمتمت: إنني... إنني لست واثقة إذا كان يبادلني الحب أم لا.

فابتسم بوارو وقال: هذا يكفي يا أبنائي، والآن هلم بنا يا هيستنغز إلى إيستبورن.

* * *

في الطريق إلى إيستبورن قلت لبوارو: هل يمكن أن ألقي عليك بعض الأسئلة يا بوارو؟

- لا يا هيستنغز، عليك أن تصل إلى النتائج بمفردك.

ثم استغرق في سكون عميق. وبعد فترة وجيزة أفاق وقال لي: غداً سوف أزور ذلك المدعو جوست... ثم أضاف قائلاً للسائق: عد بنا إلى لندن.

فهتفت قائلاً: ألن تذهب إلى إيستبورن؟

- ما الداعي إلى هذا؟ لقد عرفت ما يكفي للوصول إلى الحقيقة.

* * *

الفصل السابع عشر

لم أحضر المقابلة التي تمّت بين هيركيول بوارو والمدعو ألكسندر بونابرت جوست لأن القاضي لم يصرح بزيارته إلاّ لبوارو فقط. لكنني سأسرد فيما يلي تفاصيل ما دار بينهما بدقة كاملة بناء على حديث بوارو معي بعد ذلك. لقد بدا جوست منكمشاً على نفسه ولاح كأنما ازداد انحناء، وهو لا يكف عن العبث بأصابعه في أطراف معطفه. ومرت برهة طويلة -كما أخبرني بوارو- دون أن ينطق أحد بكلمة، وإنما جلس الاثنان كل في مواجهة الآخر في هدوء واسترخاء.

قال بوارو أخيراً بصوت رقيق: أتعرف من أنا؟

فهزّ الرجل رأسه ورفع وجهه إلى بوارو وقال وهو يطرف بعينيه: لا، لا أعرفك. هل أنت أحد المحامين في مكتب السيد لوكاس؟

- أنا هيركيول بوارو.

وحرص بوارو على أن يلاحظ بدقة تأثير هذا الاسم على الرجل. ورفع هذا وجهه مرة أخرى وتمتم ببساطة قائلاً: آه، نعم. وبعد لحظة عاد يقول بصوت ينم على الانفعال وكأنما

بدأ يتذكر: آه، السيد بوارو، هيركيول بوارو؟

- أنا الرجل الذي كنت تبعث إليه برسائلك.

فجأة أغضى السيد جوست بعينيه وقال باضطراب: أنا لم أكتب إليك أبداً، هذه الرسائل لم أكتبها أنا. هذا ما قلته كثيراً طوال جلسات التحقيق.

- أعرف هذا، ولكن إذا لم تكن أنت كاتبها فمن يكون؟

- أحد الأعداء. لا بد أن لي عدواً، إن الناس جميعاً يعادونني ولا أدري لماذا، إنها مؤامرة ضخمة مدبرة ضدي، ولكن لماذا؟

فصمت بوارو برهة ثم قال: هل كان الناس يعادونك حتى وأنت طفل؟

- لا، لا أظن. كانت أمي شديدة الحب لي وكانت تركّز كل آمالها الكبار في شخصي وتعتقد أنني سأكون عظيماً يوماً ما، ولهذا أسمتني ألكسندر بونابرت، وكأنما الاسم وحده يمكن أن يخلق من صاحبه شخصاً عظيماً. لكنها كثيراً ما كانت تؤكد لي أن الإنسان هو سيد مصيره وأن في مقدوره أن يحدد مستقبله كما يشاء.

صمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً: لكنها كانت مخطئة، وهذا ما عرفته بنفسي لأنني لم أكن من الأشخاص الذين يمكن أن يظفروا بمكانة رفيعة في الحياة. كنت دائماً أرتكب الحماقات التي تثير سخرية الناس مني، وهكذا أصبحت خجولاً وخائفاً من الناس. ولشد ما عانيت من سخرية زملائي من اسمي! ومرة

أخرى لزم الصمت فترة وجيزة قبل أن يردف قائلاً: ماتت أمي، ماتت حزينة ساخطة. والتحقت بالمعهد التجاري وتخرجت فيه متخلفاً عن جميع زملائي، وأنا إذا كنت أبدو أمام الناس غبياً إلاّ أنني في الواقع لست غبياً!

- إنني أدرك هذا، استمر.

- وأشد ما كنت أتألم كلما رأيت الناس ينظرون إلي كإنسان غبي متخلف أبله، وقد ازداد شعوري بالألم أثناء التحاقي بالعمل كاتباً في إحدى الشركات. وأشرق وجه جوست فجأة حين استطرد يقول: ولكني استمتعت بالفترة التي قضيتها بين زملائي الجنود في الحرب لأنني وجدت نفسي فجأة في مستوى واحد معهم، ولكنني للأسف أُصبت بجرح في رأسي فسُرّحت من الخدمة العسكرية لأنني أصبت بسبب ذلك الجرح بداء الصرع. والواقع أنني لا أعرف على وجه التحديد ماذا دهاني، فأحياناً أقوم بأعمال على غير وعي مني!

- وبعد ذلك؟

- اشتغلت كاتباً في شركة، ولكنني لم أحسن القيام بعملي فكان زملائي يتخطونني في الترقيات، وأصبح راتبي لا يكاد يكفي ضرورات الحياة، لا سيما بعد الارتفاع الجنوني في الأسعار. ولهذا السبب رحبت بالعمل كمندوب متجول لمصنع جوارب نسائية نظير راتب ثابت وعمولة على البيع.

هنا قال بوارو برفق: لكنك علمت أن أصحاب المصنع ينكرون أنهم عهدوا إليك بعمل كهذا.

فقال جوست وقد عاوده الاضطراب: لأنهم مشتركون في هذا المؤامرة، وإن معي أدلة مكتوبة. معي رسائل مرسلة من إدارة المصنع فيها التعليمات عن الأماكن التي يجب أن أذهب إليها وأعرض على أصحابها الجوارب.

- إن هذه الرسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة.

- طبعاً، لأن إدارة مصنع كهذا لا بد أن تكتب رسائلها على آلة كاتبة.

- ألا تعرف أن في الإمكان معرفة نوع الآلة التي كتبت هذه الرسائل؟

- طبعاً، هذه مسألة بديهية.

- لقد ثبت أن هذه الرسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة التي وجدت في غرفتك.

- هذه الآلة أرسلها لي المصنع عند التحاقي بالعمل.

- أجل، ولكن هذه الرسائل أرسلت إليك بعد استلامك الآلة، ومعنى هذا أنك كتبت عليها الرسائل وأرسلتها لنفسك.

- لا، هذا لم يحدث. إنه جزء من المؤامرة.

- وأدلة السكك الحديدية التي وجدت في غرفتك؟

- لا أعرف عنها شيئاً. لقد ظننت أنها لفافة تحتوي على علب جوارب.

- لماذا وضعت علامة على السيدة آسكر في أندوفر؟

- لأنني قررت أن أبدأ عملية البيع معها. إن على الإنسان أن ينظم أعماله ويحدد مرحلة البدء. ثم أردف قائلاً في انفعال شديد: إنها مؤامرة دنيئة ضدي، وليس أدل على ذلك من وجودي في ليلة جريمة بكسهيل في مكان بعيد، في إيستبورن حيث كنت ألعب الدومينو مع السيد سترانج.

فهز بوارو كتفيه وقال: من السهل أن يخطئ الإنسان في التاريخ، لا سيما إذا كان الخطأ في تاريخ يوم واحد. إن رجلاً عنيداً مثل سترانج يرفض أن يعترف بخطئه مهما تكن الظروف، ومن السهل عليك أن تكتب في سجل الفندق تاريخ يوم سابق أو لاحق على يوم الجريمة دون أن يفطن أحد إلى هذا!

- لقد كنت ألعب الدومينو في تلك الليلة.

فجأة هتف الرجل قائلاً في ألم: آه، لقد عاودتني نوبة الصداع. إنه مؤلم، مؤلم، إنه يجعلني في بعض الأحيان لا أدري ماذا أقول أو أفعل.

وانحنى بوارو نحوه فجأة وقال: لكنك تعلم أنك ارتكبت هذه الجرائم، أليس كذلك؟

رفع السيد جوست وجهه وبدت نظراته هادئة، وكأنما قد تلاشت كل رغبته بالمقاومة، وأخيراً قال: نعم، أعلم.

- وأنا على حق في قولي أنك لا تعرف لماذا ارتكبت هذه الجرائم، أليس كذلك؟

- نعم، إنني لا أعرف لماذا.

* * *

الفصل الثامن عشر

كنا جالسين في اهتمام وترقّب ونحن ننصت إلى بوارو وهو يكشف لنا جميع الحقائق في جرائم «أ.ب.ج». قال: كان أهم ما يشغل فكري هو «لماذا» ارتُكبت هذه الجرائم. نعم، لماذا ارتكب المجرم هذه الجرائم ولماذا اختارني أنا بالذات للتحدي؟ ولهذا يشهد صديقي هيستنغز أنني كنت مهتماً ومضطرباً عندما استلمت الرسالة الأولى لأنني أحسست أن حقيقة الأمر أخطر مما يبدو في ظاهره.

وهنا قال فرانكلين جيركن في جفاف: وثبت أنك كنت على حق في هذا الشعور يا سيد بوارو.

- نعم، ولكنني أخطأت حين أهملت هذا الشعور القوي ونظرت إليه على أنه نوع من الإلهام أو الإسراف في الخيال أو التخمين. وكلنا يخمن طبعاً، والتخمين قد يكون صحيحاً أو خاطئاً، فإذا كان صحيحاً سُمي إلهاماً وإذا كان خاطئاً أهمل أمره. ولكن ما نسميه الإلهام ليس في الواقع إلاّ شعوراً باطنياً قائماً على أساس من الخبرة والاستنتاج المنطقي، فعندما يشعر أحد الخبراء بأن ثمة خطأ ما في لوحة تاريخية أو قطعة أثرية أو توقيع على شيك فإن الشعور بالخطأ يأتي نتيجة مجموعة

كبيرة من التفاصيل الصغيرة. إنه في غير حاجة لأن يفحص هذه التفاصيل بدقة كلاً منها على حدة، ولكن خبرته تجمع هذه التفاصيل وتجعله يحس بالنتيجة.

وصمت بوارو برهة قبل أن يستطرد قائلاً: على هذا الأساس أحسست أن شيئاً ما خطيراً يكمن وراء تلك الرسالة الأولى، ولكن إدارة اسكتلانديارد سخرت منها وقالت إنها مجرد دعابة ثقيلة من أحد الفارغين التافهين. ولم يلبث حادث أندوفر أن أثبت أنني كنت على حق في ذلك الشعور الخفي. ولم أعرف بطبيعة الحال المجرم الذي ارتكب تلك الجريمة، وهكذا أوجب عليّ أن أحاول التعرف عليه من دلالات الرسالة وطريقة ارتكاب الجريمة وشخصية المجني عليها. لكن أهم من هذا كله هو أن أعرف لماذا ارتكبت هذه الجرائم ولماذا اختارني المجرم بالذات ليبعث إليّ برسالته!

قال فرانكلين جيركن: لرغبته في الشهرة والظهور.

وقالت تورا جراي: لا شك أن الشعور بمركب النقص هو المبرر لهذه الجرائم.

- هذا هو التبرير الواضح، ولكن لماذا أرسل إليّ أنا، أنا هيركيول بوارو؟ إذا كانت الشهرة بغيته فلماذا لم يبعث برسائله إلى إدارة اسكتلانديارد أو إلى إحدى الصحف؟ إنه لو فعل هذا لظفر بالمزيد من الشهرة إن كانت الشهرة بغيته حقاً، فلماذا إذن اختارني أنا بالذات؟ هل اختارني لأسباب شخصية؟ هذا ما لم أعرفه في حينه. ثم وصلت الرسالة الثانية التي أعقبها حادث مقتل بيتي برنارد في بكسهيل، وقد أثبتت

لي هذه الجريمة أن المجرم ينوي ارتكاب الكثير من الجرائم طبقاً لترتيب الحروف الهجائية في أسماء عديدة، ولكنني أقول مرة أخرى إن السؤال المهم جداً ظل بلا جواب وهو: لماذا يرتكب المجرم هذه الجرائم؟

هنا تململت ميجان برنارد في جلستها وقالت: ألا يوحد شيء اسمه شهوة القتل؟

- أجل يا آنسة، يوجد شيء اسمه شهوة القتل فعلاً. ولكن هذه الشهوة إذا استبدت برجل ما (وفي غالب الأمر يكون مجنوناً) فإنها تدفعه إلى القتل بالجملة، إلى قتل أكبر عدد من الناس. وأهم ما يشغل بال مثل هذا القاتل هو تغطية كل أثر ينم عليه لا أن يعلن عن الجرائم مقدماً بمثل هذه الرسائل. ثم لماذا كان يحرص على أن يترك مع كل جثة دليل «أ.ب.ج» للسكك الحديدية؟ لقد كان في مقدوره أن يرتكب هذه الجرائم خفية تاركاً عبئها يقع على أشخاص يمكن الاشتباه فيهم، مثل السيد آسكر زوج الضحية الأولى والسيد دونالد فريزر خطيب الضحية الثانية وهكذا. إذن لماذا حرص على أن يركز الاتهام على شخصه بالذات؟ هل هو الدافع لأن يكون شهماً كريماً؟ وهل يمكن أن تعرف الشهامة طريقها إلى قلب قاتل كهذا؟

صمت بوارو برهة ثم استطرد يقول: على أن هناك معالم استطعت أن أعرف بها شيئاً عن عقلية المجرم ونفسيته.

فقال فريزر: مثل ماذا؟

- أولاً أدركت أن له عقلية جدولية. لقد رأى أن من

الأهمية بمكان أن يرتكب جرائمه حسب الحروف الهجائية لأسماء الضحايا، فلو لم تكن له عقلية جدولية لما اهتم بأمر كهذا كل الاهتمام. ومن ناحية أخرى لم يكن له إحساس خاص نحو الضحايا، فإن السيدة آسكر وبيتي برنارد والسير مايكل جيركن يختلفون بعضهم عن بعض أشد الاختلاف، أي لم يكن في الموضوع عقدة جنس ولا عقدة سن معينة، وهذا من الأسباب التي حيرتني كثيراً. فالمجرم حين يعمد إلى ارتكاب جريمة ما فإنما يهدف بذلك إلى إزاحة شخص يضايقه من الطريق. لكن الحرص على ارتكاب هذه السلسلة من الجرائم حسب الترتيب الهجائي لأسماء الضحايا لا يتفق مع هذه النظرية، ولكن هذه العقلية الجدولية قد تدل من جهة أخرى على كراهية متأصلة للحروف الهجائية. وشيء آخر أسمح به لنفسي في ميدان الاستنتاج، وهو أن اختيار دليل السكك الحديدية ينم عن طبيعة ذكورية، لأن الأطفال الذكور هم الذين يحبون اللعب بأدوات السكك الحديدية، كالقطارات والقضبان. وما دمنا دخلنا في ميدان اللعب يمكن أن نقول إن للمجرم عقلية صبيانية! إن الطريقة التي ماتت بها بيتي برنارد قد أوحت إليّ باستدلال آخر، فإن استعمال حزامها في قتلها دليل على أن القاتل كان على علاقة مودة معها، وأستطيع أن أتصور أنه قد سحبه ثم لفه حول عنقها مداعباً وهو يضحك قائلاً: "هل أخنقك؟". وبينما هي تشاركه الضحك يكون هو قد بدأ في خنقها فعلاً! ونحن نعرف الآن أن بيتي كانت فتاة تحب الغزل وتميل إلى الرجل الوسيم الذي يعرف كيف يجذبها بشخصيته اللطيفة، وفي هذه الحالة ينبغي أن يكون القاتل شخصاً جذاباً للنساء بصفة عامة.

هنا حاول دونالد فريزر أن يحتج ولكن بوارو أسرع يقول: انتهينا من هذه النقطة يا سيد فريزر، ولننتقل إلى الجريمة التالية، إلى مصرع السير مايكل جيركن. وهنا نجد المجرم يعود إلى طريقته الأولى، الضرب على الرأس، وهنا أيضاً نجد عقدة الأحرف الهجائية واضحة. ولكن جريمة جيرستون هذه لم تزودني إلاّ بالقليل جداً من المعالم لأن الرسالة التي أُرسلت إليّ أخطأت طريقها في العنوان مرتين حتى وصلتني متأخرة، أي بعد وقوع الجريمة. لكن عندما أعلن المجرم عن جريمة «د» اتخذ رجال المباحث إجراءات ضخمة وظهر واضحاً أن المجرم لن يستطيع الإفلات هذه المرة من العدالة، وفي الوقت نفسه كنا قد علمنا أن القاتل يبيع الجوارب النسائية لحساب مصنع ما، ولكنني في الحقيقة لم أكن أتوقع أن يكون على ذلك الشكل الذي وصفته به الآنسة تورا جراي، لأن هذا الشكل لم يكن يتفق مع الصورة التي تخيلتها عنه ليكون هو قاتل بيتي برنارد!

ننتقل إلى المراحل التالية بسرعة. لقد ارتكبت جريمة رابعة وكان المجني عليه في هذه المرة رجلاً يدعى جورج إيرسفيلد، وقد افترضنا أن القاتل حسبه رجلاً يدعى دونز على نفس الشكل والحجم وكان يجلس بجانب المجني عليه في السينما، وهنا تدور أخيراً عجلة الحظ ضد القاتل، وهكذا تنتهي الأمور بمطاردته ثم القبض عليه وتعتبر القضية -كما قال هيستنغز- منتهية. وأعتقد أنها بالنسبة للرأي العام وللجميع منتهية أيضاً لأن القاتل في السجن ينتظر صدور الحكم عليه. ولكن في هذه القضية تظهر ثغرة بسيطة مزعجة، وهي شهادة

المدعو سترانج عن ليلة وقوع الجريمة الثانية في بكسهيل.

قال فرانكلين جيركن عندئذٍ: نعم، هذه ثغرة واضحة تحتاج إلى تفكير عميق!

فأومأ بوارو برأسه وقال: تماماً يا سيد جيركن. وهذا التفكير العميق يجعلنا نفترض مثلاً أن قاتل بيتي برنارد ليس السيد جوست وإنما شخص آخر انتهز فرصة هذه الضجة ليرتكب هذه الجريمة وهو مطمئن إلى أنها ستضيع بين سلسلة الجرائم الأخرى التي يرتكبها مجرم «أ.ب.ج»، وهذه نظرية معقولة وتؤيدها السوابق التي حدثت في جرائم جاك السفاح، ذلك أن كثيراً من المجرمين انتهزوا تلك الفرصة وراحوا يقتلون بطريقة جاك السفاح ليلقوا تبعة هذه الجرائم عليه، ويزيد من تأييد هذه النظرية أن الرجل الذي استطاع أن يجتذب بيتي إليه ثم يقتلها لا بد أن يكون رجلاً جذاباً له طريقته الخاصة مع النساء، وهذه الصفات غير متوفرة في السيد جوست. لكن يمكن أن نهدم هذه النظرية من أساسها بقولنا إن جريمة أندوفر (أي مقتل السيدة آسكر) كانت تبدو للرأي العام جريمة عادية لا تدل على أنها الأولى في سلسلة من الجرائم، لأننا لم نذكر للصحف أية تفاصيل عن رسائل القاتل لي أو عن وجود دليل السكك الحديدية بجانب الجثة، ومعنى هذا أن قاتل بيتي برنارد لم يكن يعلم أن هناك سلسلة من الجرائم في طريقها إلى الحدوث. هنا وجدت نفسي أمام عقدة لا أعرف لها حلاً، ولكنني في الوقت نفسه كنت أشعر أن هناك شيئاً خطيراً في الرسائل التي كانت تصلني. كنت أشعر نحوها بشعور الخبير الفني أمام لوحة مزيفة، إنه يشعر بخبرته

وعقله الباطن أنها مزيفة ولكنه لا يدري لماذا؟ ومن ثم عدت أفحص هذه الرسائل وأعيد قراءتها حتى أدركت أخيراً سر شعوري الغامض نحوها.

هنا قال فرانكلين جيركن باهتمام: وما هو هذا السر يا سيد بوارو؟

- شعرت أن هذه الرسائل لم يكتبها رجل مجنون كما اعتقدنا جميعاً وإنما كتبها رجل عاقل يتمتع بذكاء خارق للعادة.

فهتفت أنا قائلاً في دهشة: ماذا؟

- نعم يا عزيزي هيستنغز. كاتب هذه الرسائل أراد أن يجعلها تبدو كأنما هي مكتوبة بيد رجل مجنون، بينما الأمر في الحقيقة غير هذا.

فقال فرانكلين جيركن: هذا غير معقول يا سيد بوارو!

- حسناً، لنفكر ملياً في الأمر. ما هو الهدف من كتابة هذه الرسائل؟ الهدف هو تركيز الانتباه على كاتبها لتركيز الأنظار على الجرائم! وبدا لي أن تركيز الانتباه على المجرم والجرائم لا معنى له، وفجأة وضح الأمر أمامي، وضح لي أن الغرض هو تركيز الانتباه على عدد الجرائم وعلى مجموعة من الجرائم. ألم يكن شكسبير هو القائل: "إنك لا تستطيع أن ترى شجرة وسط غابة أشجار"؟ وهذا يعني أن الإنسان لا يرى دبوساً معيناً بين مجموعة دبابيس ولكنه يراه إذا كان مفرداً. هذا أيضاً يعني أن الجريمة الواحدة تكون مكشوفة والدافع إليها يبدو واضحاً، أما إذا كانت بين مجموعة من الجرائم التي لا يعرف أحد لها

حافزاً أو باعثاً معيناً فإنها تتوه أو تضيع بينها!

وهكذا وجدت نفسي أواجه مجرماً خارق الذكاء، مجرماً داهية قاسياً جريئاً له طبيعة المغامر المحترف، وهذه الصفات كلها لا تنطبق على السيد جوست بأي حال من الأحوال، إنه ببساطة ليس الرجل الذي يرتكب كل هذه الجرائم بمثل هذا الإحكام. أما المجرم الحقيقي فهو رجل مختلف تماماً، رجل له مزاج صبياني «يدل عليه الترتيب الهجائي ودليل السكك الحديدية»، رجل جذاب للنساء ولا يهتم كثيراً بالنفس الإنسانية وله مصلحة خاصة أكيدة في ارتكاب هذه الجرائم.

إذا وقعت جريمة ما فماذا يخطر ببال المحققين لأول وهلة؟ إنه البحث عن الدافع إلى القتل ومعرفة أين كان الذين يدور حولهم الاشتباه ومن هم الذين سينتفعون من وراء ارتكاب هذه الجريمة. فإذا كان الدافع إلى القتل واضحاً جداً فإن المشتبه في أمره عندئذٍ (أي المجرم الحقيقي) يبذل قصارى جهده ليقيم الدليل على أنه كان بعيداً عن مسرح الجريمة عند وقوعها. ولكن هذا الجهد كثيراً ما ينكشف أمره وكثيراً ما يكشف التحقيق بطلان الأدلة التي يمكن أن يسوقها المجرم لإثبات براءته، لهذا كله رأى مجرمنا أن يحصن نفسه بسد منيع من الأدلة، ففكر في هذه السلسلة من الجرائم التي تبدو في أنظار الجميع أنها جرائم مجنون تطغى عليه شهوة القتل! وما عليّ الآن إلاّ أن أستعرض هذه الجرائم المختلفة لأهتدي من ورائها إلى الأشخاص الذين يمكن أن يدور الاشتباه حولهم، ثم أحاول أن أركز الاتهام كله في شخص واحد بينهم يكون هو صاحب مصلحة أساسية في ارتكاب جريمة منها ثم ارتكب

الجرائم الباقية لتضيع الجريمة الأصلية بينها.

لنبدأ بجريمة أندوفر: إن أول شخص يمكن أن نشتبه فيه هو فرانز آسكر زوج المجني عليها، ولكن شخصية آسكر لا تدل إطلاقاً على أن في مقدوره تدبير وتنفيذ هذه السلسلة من الجرائم. وننتقل إذن إلى جريمة بكسهيل، والاشتباه فيها يدور حول السيد دونالد فريزر. إنه شاب له عقلية رصينة مدبرة يمكن أن يضع خطة محكمة لمثل هذه السلسلة من الجرائم، ولكنني عرفت أنه نال إجازته السنوية في الأسبوعين الأولين من شهر أغسطس وهذا لا يتيح له إطلاقاً أن يرتكب الجريمة الأولى أو الجريمة الثالثة في جيرستون، ثم لماذا يرتكب جريمة بكسهيل؟ بدافع الغيرة؟ إنه مبرر ضعيف لأسباب كثيرة، إذ لم يثبت بصفة قاطعة أن بيتي أمعنت في خيانته إمعاناً يدفعه إلى قتلها، ثم إنها لم تكن زوجته. وحتى لو كانت كذلك لما ارتكب هذه السلسلة من الجرائم، والانتقام من الفتاة يمكن أن يتم بأن يفترق عنها ببساطة كما يفترق أي خطيب عن خطيبته. لا، إن الغيرة في هذه الحالة لا تبرر إطلاقاً ارتكاب هذه السلسلة من الجرائم. وهكذا ننتقل إلى الجريمة الثالثة، وهنا نحد أنفسنا واقفين على أرض من الحقائق الواضحة والمبررات القوية، فقد كان السير مايكل جيركن رجلاً واسع الثراء، فمن الذي سوف يرث هذه الثروة الطائلة بعد وفاته؟ زوجته التي من حقها أن تستمتع بالثروة أثناء حياتها، ثم تنتقل بعد ذلك إلى أخيه فرانكلين جيركن. وكلنا نعرف أن الزوجة في حالة احتضار بطيء الآن...

واستدار بوارو ببطء حتى تلاقت نظراته بنظرات فرانكلين

جيركن ثم استطرد قائلاً: كنت واثقاً عندئذٍ أن ذلك الشخص الذي طالما فكرت فيه على أنه صاحب رسائل «أ.ب.ج» ليس أحداً سوى فرانكلين جيركن. إنه الشخصية المغامرة التي طافت كثيراً خارج البلاد، والذي يتمتع بجاذبية خاصة للنساء تجعل في مقدوره أن يتعرف ببساطة على أية فتاة جميلة في مقهى مثل الجنجركات وأن يتواعدا على اللقاء سراً، إنه الشخصية ذات العقلية الصبيانية كما قالت الليدي جيركن والذي يميل إلى قراءة كتب المغامرات مثل كتاب «أطفال القطار» للكاتب نيسبيت (كما ذكر بنفسه حين قال إنه كان يقرؤه للمرة الثانية). نعم، إن كل الصفات المتوفرة في كاتب تلك الرسائل كانت تنطبق تماماً على فرانكلين جيركن.

وضحك فرانكلين عالياً وقال: حقاً إنك نابغة يا سيد بوارو! وماذا عن صاحبنا جوست الذي قبض عليه ودماء المجني عليه في الجريمة الرابعة على كم معطفه وعن السكين التي وجدت في مسكنه؟ إنه ينكر الجرائم الثلاثة الأولى، ولكن...

- أنت مخطئ في هذا يا سيد جيركن، لقد اعترف بارتكابه الجرائم كلها.

- ماذا؟! اعترف؟ أتقول اعترف؟!

- نعم، ما أن فرغت من حديثي معه حتى أصبح يعتقد، مجرد اعتقاد، أنه هو الجاني.

- ومع ذلك فأنت غير مطمئن؟

- نعم، لأنني ما أن رأيته حتى أيقنت تماماً أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون الجاني بأي شكل. ليست له الجرأة ولا الأعصاب ولا التفكير اللازم لتدبير وتنفيذ هذه السلسلة من الجرائم. ولكنني أدركت حين رأيته أنه الشخصية التي اتخذها القاتل الحقيقي ليختفي وراءها ثم يقدمها في النهاية للعدالة باعتبارها المجرم الحقيقي. وكأنما لم يكفك يا سيد جيركن أن ترتكب هذه الجرائم كلها وإنما أبيت إلاّ أن تقدم عن نفسك كبش فداء! وأعتقد أن الفكرة نبتت في ذهنك عندما التقيت مصادفة بالسيد ألكسندر بونابرت جوست في أحد المقاهي، ولعل اسمه العجيب لفت انتباهك، ثم ازداد اهتمامك به حين رأيت شخصيته الواهنة الضعيفة المسكينة، وكنت في ذلك الحين تستعرض في ذهنك مختلف الوسائل لقتل أخيك.

- أحقاً؟ لماذا؟

- لأنك كنت شديد القلق على المستقبل. كنت تخشى أن يتزوج أخوك بسكرتيرته تورا جراي بعد وفاة زوجته الليدي جيركن وينجب منها وريثاً لثروته، لا سيما وقد كان أخوك محتفظاً بقوته وحيويته، وفي هذه الحالة تظل أنت طيلة حياتك شريداً مفلساً. وإن خبرتك التي اكتسبتها من رحلاتك في الخارج ومن علاقاتك بالنساء قد جعلتك تدرك أن تورا جراي من النوع الصياد الذي يجري وراء الرجل الثري، وهكذا قررت أن تبادر وتؤمّن مستقبلك بالقضاء على أخيك قبل أن تموت زوجته وقبل أن تسنح له فرصة الزواج بتورا جراي. وحين التقيت بالسيد جوست وعرفت اسمه الكامل بدأت فكرة جرائم الحروف الهجائية تتبلور في ذهنك، لا سيما حين علمت أنه

مصاب بالصرع أيضاً وبنوبات من الصداع المؤلم الذي يجعله -كما قال لك- لا يكاد يشعر بما يقول.

واختمرت الفكرة في ذهنك وتبينت كل معالمها، وقررت أن ترتكب سلسلة من الجرائم تضيع بينها جريمة جيرستون، على أن تكون أسماء الضحايا مطابقة لتسلسل الحروف الأبجدية، وهو التسلسل الذي أوحى به إليك اسم ألكسندر بونابرت جوست، أي أ.ب.ج. وأن تجعل منه هو كبش الفداء! كان تدبيرك عجيباً محكماً، إذ كتبت باسم أ. ب. جوست رسالة على آلة كاتبة عندك تطلب فيها من أحد المصانع كمية من الجوارب والملابس النسائية الداخلية، وأعددت كمية من أدلة الحروف الهجائية للسكك الحديدية في لفافة تبدو كأنها لفافة تحتوي على علب جوارب نسائية، وكتبت له هو رسالة على الآلة الكاتبة باسم المصنع تعرض عليه فيها راتباً مجزياً وعمولة على البيع، ثم كتبت على نفس الآلة مجموعة الرسائل التي نويت أن ترسلها إليّ باسم «أ.ب.ج»، ثم أرسلت الآلة الكاتبة نفسها إلى جوست على اعتبار أنها هدية من مصنع الجوارب إليه، وشرعت بعد ذلك تبحث عن ضحايا تبدأ أسماؤهم بالأحرف نفسها على أن يكون كل منهم مقيماً في بلدة يطابق الحرف الأول من اسمها الحرف الأول من اسمه.

وبدأت ببلدة أندوفر، ووقع اختيارك على السيدة آسكر حين قرأت اسمها بوضوح على اللافتة وحين رأيت أنها امرأة عجوز وحيدة يمكن قتلها بسهولة. أما الحرف «ب» فقد استلزم منك مناورة غرامية بارعة لكي توقع بيتي برنارد في حبائلك

ولكي تخرج معها للنزهة في أماكن بعيدة زاعماً لها أنك رجل متزوج ولا تحب أن ينتشر أمر علاقتك بها.

وحين تمّت جميع تدبيراتك الأولية أرسلت إليّ رسائل التحدي، وأرسلت إلى جوست قبل كل جريمة باسم المصنع تعليمات تأمره فيها بالذهاب إلى مسرح الجريمة في نفس يوم وقوعها بحجة بيع جوارب لسيدات معينات ذكرت له أسماءهن، فمثلاً جعلته في صباح يوم ارتكاب جريمة أندوفر يذهب إلى أندوفر ويبيع أو يعرض للبيع جوارب على السيدة آسكر والسيدة فاولر جارتها وبعض السكان الآخرين، وكذلك فعلت في كل من جريمة بكسهيل وجيرستون. طبعاً كان المسكين يذهب وهو خالي الذهن تماماً من الجرائم التي تُرتكب باسمه ومن وراء ظهره، وهكذا نجحت في ارتكاب جريمة أندوفر وفي ارتكاب جريمة بكسهيل، ولكنني واثق تماماً أنك قتلت بيتي برنارد قبل منتصف ليل الرابع والعشرين من يوليو على سبيل ضمان النجاح.

ننتقل إلى الجريمة الثالثة، الجريمة الهامة والأساسية التي أردت أن تجعلها تضيع بين هذه السلسلة من الجرائم. وهنا أشكر صديقي هيستنغز الذي كان أول من لفت نظري إلى عنواني الذي كُتب خطأ عن عمد على مظروف الرسالة لكي يصلني متأخراً، أي بعد وقوع الجريمة. نعم، لقد تعمدت أن تكتب العنوان خطأ حتى تضمن ارتكاب الجريمة الثالثة الأساسية قبل أن يتدخل رجال المباحث في الأمر، وهذا أيضاً يفسر اختيارك لي بالذات لكي تبعث بهذه الرسائل إليّ. لقد اخترتني بالذات لأن في مقدورك أن تكتب عنواني خطأ،

أما لو اخترت اسكتلانديارد أو إحدى الصحف لما أمكنك أن تكتب العنوان خطأ، وحتى لو كتبته فإن إدارة البريد كانت سترسله فوراً إلى العنوان الصحيح. والواقع أن هذا التفكير يدل على عقلية جبارة خارقة الذكاء!

وبعد نجاحك في ارتكاب الجريمة الثالثة التي أقامت الدنيا وأقعدتها رأيت أن تختم سلسلة الجرائم بجريمة رابعة تبعد بها كل اشتباه في أمرك وتجعلها واضحة المعالم كثيرة الأخطاء بحيث تنتهي بالقبض على كبش الفداء، وهكذا اخترت دونكاستر مسرحاً لها وحددت يوم الاحتفال بعيد سانت ليجير، واخترت رجلاً، أي رجل كان في طريقه إلى السينما بعد أن رأيت جوست يدخلها. وكنت تسير وراءه تتعقبه لتنتهز أول فرصة سانحة ترتكب فيها جريمة وتلقي بعبئها عليه. وساعدك الحظ ودخلت وجلست على مقربة من جوست ونهضت قبل نهاية العرض وسرت في طريق الخروج، ثم تظاهرت بأنك تتعثر وبأن قبعتك وقعت على مقعد أمامي، وأثناء استردادك لها طعنت الرجل الجالس بجوارها بالسكين في القلب تماماً، ولم يكن يهمك أيبدأ اسمه بالحرف «د» أم لا لأنك كنت تعتقد أنه لا بد أن يكون بين المتفرجين رجل يبدأ اسمه بهذا الحرف فيظن الناس أنه كان هو المقصود ولكن المجرم أخطأه. وأياً كان الأمر فقد كان هدفك الأساسي هو أن ينكشف أمر الجريمة الرابعة وأن تثبت على السيد جوست، ولهذا تعمدت أن تصطدم به عند الخروج من السينما حين انتهزت فرصة عدم الإضاءة الكاملة والزحام والاصطدام به من الخلف، فمسحت نصل السكين أو جانباً منها في كم معطفه ثم أسقطتها في جيب المعطف.

يمكننا أن نتصور حالة المسكين جوست حين يعود إلى غرفته بالفندق فيجد الدماء على كمه والسكين في جيبه، ثم حين يربط بين هذا كله وبين ما يقرأه عن سلسلة الجرائم التي يرتكبها رجل يدعى «أ.ب.ج» وحين يتذكر أنه كان موجوداً في مسرح كل جريمة في نفس يوم وقوعها. لا شك أن الأمور اختلطت في عقله وخامره الشك في نفسه وفي أنه ربما يكون قد ارتكب هذه الجرائم على غير شعور منه! لكن ماذا عن الرسائل؟ إن المسكين يخرج من غرفته من مسكن السيدة ماربري في لحظة يأس ويمضي شارداً بلا مال أو هدف، ولكن إلى أين؟ إن قدميه تقودانه بغير وعي إلى أندوفر، وهناك وقف يتأمل دكان السيدة آسكر الضحية الأولى، ثم انصرف عنها حيث فاجأته نوبة الصرع وهو يدخل مركز الشرطة. وحين اعترف لي في لحظة يأس واستسلام للمصير بأنه ارتكب هذه الجرائم ازددت يقيناً من نظريتي.

هنا قال فرانكلين جيركن: إن نظريتك هذه غريبة شاذة.

- لا يا سيد جيركن. لقد كنت آمناً على نفسك لعدم وجود أدلة، أما الآن فقد توافرت الأدلة على اتهامك!

- أدلة؟

- نعم، لقد عثرنا على العصا التي استُعملت في جريمة أندوفر وجيرستون، وهي عصا عادية الشكل ولكن طرفها الأعلى مفرغ ومصبوب فيه رصاص، عثرنا عليها في خزانة قديمة بقصر أخيك في بلدة جيرستون، وتعرّف على صورتك ثلاثة من الذين كانوا في السينما وقالوا إنك كنت أحد الخارجين

منها بعد انتهاء عرض الفيلم الذي وقعت أثناءه الجريمة الرابعة، وتعرفت على صورتك ميللي هيجلي وفتاة أخرى تدعى سكارليت رانز في هشرت رودهاوس الذي جلست فيه مع بيتي برنارد في ليلة الجريمة.

وأخيراً، وهذا هو الأهم، عثرنا على بصمة من بصمات أصابعك على الآلة الكاتبة التي وجدناها في غرفة السيد جوست، فلو أنك كنت بريئاً لما كان لك أي شأن بها.

* * *

الخاتمة

ساد الصمت برهة، وفجأة قال فرانكلين جيركن: أنا لست آسفاً على ما فعلت. لقد كنت أريد أن أضمن مستقبلي.

ثم دسّ يده في جيبه وأخرج مسدساً صغيراً فوضعه على جانب رأسه، ولكن بوارو كان له بالمرصاد، فضربه على يده وألقى المسدس بعيداً. وفي تلك اللحظة دخل اثنان من رجال اسكتلانديارد كانا في الغرفة المجاورة وألقيا القبض على فرانكلين جيركن. والتفت بوارو نحوي باسماً وقال: لقد خانه الذكاء كثيراً، لأن الحقيقة أننا لم نجد آثار بصمات لأصابعه على الآلة الكاتبة، ولكنها حيلة قديمة أوقعته بها في فخ الاعتراف.

ونهضت تورا جراي شاحبة الوجه لتنصرف، فقال لها بوارو: أنا آسف يا آنسة جراي، لقد طار العصفوران من يدك!

واندفعت إلى باب الخروج دون أن تجيب من فرط الغضب.

- أما أنتِ يا آنسة ماري دراور فأرجو أن تتأكدي من أن صاحبك يبادلك الحب قبل أن تتمادي في علاقتك به.

ثم ابتسم وأردف قائلاً للشاب دونالد فريزر حين رآه ينهض ممسكاً بيد ميجان برنارد: لا تخجل يا سيد فريزر من مصارحة ميجان بحقيقة مشاعرك، فالواقع أنها تبادلك الحب ولكن مأساة بيتي تقف عقبة في سبيلكما. تذكر دائماً أن الحياة أقوى من الموت وأن الحب أجمل ما في الحياة.

ثم قال بعد انصراف الجميع: أما السيد جوست المسكين فيجب أن أعرضه على طبيب عيون لكي يصنع له نظارة جديدة، لأنني أعتقد أن صداعه المؤلم ناشئ من سوء حالة نظارته الطبية.

* * *

(تمت)